العسكرية المصرية

obeikandl.com

obeikandl.com

من عزة الاستقلال .. إلى ذل الاحتلال

يقول علماء الاقتصاد إن للاقتصاد « دورة » . . فقد تهيء الظروف لأى نظام اقتصادى فرص التحسن والنمو حتى يبلغ القمة ، ثم تنشأ ظروف أخرى ـ على المدى الطويل أو المدى القصير ـ من داخل النظام نفسه أو من خارجه تهبط به إلى الحضيض .

* ويقول المؤرخون وعلماء الحضارات أيضا إن للتاريخ « دورة » قد ينهض فيها شعب من الشعوب أو أمة من الأمم من حضيض سببته أسباب أو ظروف معينة ، ثم يخطو هذا الشعب فى طريق التقدم والرقى الحضارى إلى أن يصل إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من قمم سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية . ثم تدور عجلة التاريخ على مدى سنين طوال أو قصار ، وتبدأ ظروف الانحدار فى عملها المقيت إلى أن يصل هذا الشعب إلى الحضيض الحضارى مرة أخرى لتبدأ دورة جديدة .

* ويقول علماء الفلك إن النظام الكونى مبنى أيضا على هذا الأساس ، حيث تدور الأجرام السماوية فى أفلاكها دورات لا نهائية بين القمة والحضيض . وصدق من قال فى الفولكلور مثلا شعبيًا يؤكد هذه النظرية : « ما طارطير وارتفع إلا كما ارتفع وقع » .

*وبالنظر إلى أن التاريخ المصرى القديم أصبح واضحًا كل الوضوح بعد أن انجلت أسراره وعرفنا مساراته عبر القرون ، فقد أثبت هذا التاريخ نظرية « الدورة بين القمة والحضيض » عدة مرات . ورأينا فيما سبق [فى الجزء الثانى من « أم الحضارات »] كيف نشأت الدولة المصرية على يد الملك «مينا » مؤسس الأسرة الأولى عام ٣٢٠٠ ق م ، وكيف ارتقت هذه الدولة حتى بلغت أعلى قمة حضارية فى عصر الدولة

القديمة [الأسرات من الثالثة حتى السادسة]. ثم كيف انهارت الدولة القديمة وساد عصر سمى بحق عصر الاضمحلال الأول استمر خلال عصر الأسرات من السابعة حتى الحادية عشرة . ثم دار التاريخ دورته فبلغت مصر ذرى حضارية جديدة تميزت بالقوة والرخاء الاقتصادى فى عصر الأسرة الثانية عشرة ، وهو عصر عامر بالمنشآت العمرانية الكبرى والرخاء الاقتصادى وارتقاء الفن والثقافة والأدب ، بالاضافة إلى ما وصل إليه شعب مصر من التمسك بحقوق الانسان ومبادىء العدالة الاجتماعية .

* ولكن ـ وكما يقال ـ فإن دوام الحال من المحال . . فبعد أن انتهى عهد الملك العظيم « أمنمحعت الثالث » الذى جمع بين القوة وحسن الادارة والحكم بين الناس بالعدل والسيطرة التامة على كافة أمور الدولة من سياسية واقتصادية واجتماعية ، ارتقى العرش بعده ابنه « أمنمحعت الرابع » . ولم يكن الابن فى قوة أبيه . وتدل شواهد التاريخ على أن الحاكم القوى المصلح إذا خلفه حاكم أضعف منه ، فسرعان ما يضرب الضعف أطنابه فى عصب الدولة . وهذا بالضبط ما حدث بالتدريج فى عهد «أمنمحعت الرابع » الذى كان ملكا ضعيفا لم يشن حربًا ولم يتميز عهده إلا بارساله لبعض البعوث لاستخراج المعادن من سيناء والصحراء الشرقية . ومات دون أن ينجب وريثًا ذكراً لعرش مصر . وآل العرش إلى أخته الملكة « سبك نفرو » ومعنى اسمها «جمال التمساح » فحكمت مصر نحو خمس سنوات انتهت بنهاية الأسرة الثانية عشرة وبداية عصر الأسرة الثالة عشرة .

* ولم يكن ملوك هذه الأسرة الجديدة بمثل قوة وعظمة ملوك الأسرة السابقة . ولا تحوى الآثار المصرية إلا النادر من اسمائهم . وأغلب آثارهم عبارة عن تماثيل ومنشآت صغيرة قليلة القيمة . ويقول « برستيد » إن ذلك يرجع إلى عدم وفرة القوة والمال والوقت الكافى لاقامة الآثار الكبرى . ولا غرابة فى ذلك لأن ملوك هذه الأسرة كانوا يتبدلون بسرعة حتى استحال على أحدهم أن يقيم أثرًا ذا شأن . وكانت مدة حكم كل ملك منهم بين سنة وثلاث سنوات . وقد قصرت أحيانا فبلغت يومين أو ثلاثة .

* وتدل الشواهد التاريخية على انه فى حالة ضعف الملوك أو الحكام المركزيين ، تزداد

قوة وسيطرة حكام الأقاليم المحليين ، كما تزداد قوة وسيطرة كبار رجال الدولة وكبار الموظفين . وهذا ما حدث بالفعل فى عصر الأسرة الثالثة عشرة . وفى مثل هذه الحالة تتفكك أوصال الدولة بالتدريج ، ويحدث التنازع بين حكام الأقاليم لمحاولة الأقوياء منهم السيطرة على الأقاليم الأخرى وادعاء حقهم فى الجلوس على العرش إذا استطاعوا إليه سبيلا . وبالتالى تزداد أحوال البلاد سوءاً فيطمع الأجانب فى التسلل إلى البلاد والاستيلاء على خيراتها . وهذا ما حدث بالفعل فى أواخر عصر الاسرة الثالثة عشرة وبداية عصر الأسرة الرابعة عشرة حين وقعت مصر تحت الاحتلال البغيض من قوم من قبائل الرعاة اسمهم « الهكسوس » .

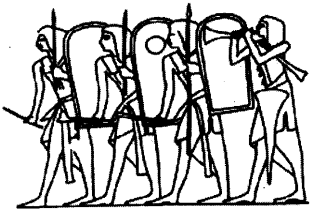

obeikandl.com

الهكسوس .. أول احتلال أجنبى لمصر

من الشواهد الغريبة فى تاريخ الشعب المصرى ، فى مختلف عصوره وحقبه ، ان هذا الشعب قد تعرض عدة مرات إلى أنواع مختلفة من المصائب الكبرى . ولكن أكبر المصائب التى وقعت فى تاريخ مصر القديم ، هى وقوع البلاد تحت احتلال الهكسوس لأول مرة منذ نشأت الدولة المصرية فى بداية عصر الأسرات . وكان المحتلون قومًا من الرعاة ، وصفتهم الوثائق المصرية القديمة بأنهم « طاعون من البرابرة الأجلاف الهمج القذرين » .

* وقد اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ حدوث هذه الكارثة الاستعمارية ووقوع مصر تحت سيطرة هؤلاء الحكام الأجانب . ولكن أرجح التواريخ التى تجد قبولاً لدى معظم المؤرخين هو حوالى عام ١٧٣٠ ق م . ومعنى هذا أن مصر ظلت محتفظة «بمصرية» الحكم على مدى نحو ألف وخمسمائة سنة منذ توحيدها عام ٣٢٠٠ ق م . وقد حدثت عدة قلاقل واضطرابات فى نظام الحكم خلال تلك السنوات الطويلة ، ودار التاريخ دوراته بين القمة والحضيض ، كما سبق وبيناه من قبل ، إلا أن حكم مصر ظل فى يد المصريين ، حتى فى عصر الاضمحلال الأول حين تفككت أوصال البلاد وحدثت المنازعات بين حكام الأقاليم المصرية ، فقد كان هؤلاء الحكام من المصريين الخلَّص ، ولم يكن بينهم أجنبى أو محتل غاصب .

* وكما اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ احتلال الهكسوس لمصر ، فقد اختلفوا أيضًا واختلفت أبحاثهم وتحليلاتهم فى تحديد جنسية وأعراق هؤلاء الهكسوس وأسلافهم الذين أنجبوا سلالاتهم . كما اختلفوا أيضاً فى تفسير المعنى الحقيقى لاسم الهكسوس . واختلفوا كذلك فى تحديد مدة احتلالهم لمصر . وهل جاءوا إلى مصر فى شكل غزوة حربية بجيش جرار أم تسللوا إلى مصر بالتدريج .

* أما عن تفسير كلمة « هكسوس » فلا يوجد فى المصادر والكتابات المصرية القديمة ما يدل على وجود هذه الكلمة فى اللغة المصرية القديمة ، وانما وجدت أوصاف أطلقت عليهم مثل وصفهم بـ « الطاعون » أو بكلمة « عامو » أى الآسيويين . وأول من استعمل كلمة « هكسوس » هو المؤرخ المصرى القديم « مانيتون » الذى عاش خلال القرن الثالث قبل الميلاد ، أى بعد مرور نحو ما بين أربعة عشر وخمسة عشر قرنًا على احتلال الهكسوس لمصر وطردهم منها . والكلمة التى استعملها « مانيتون » مكونة من مقطعين هما : « حقا » بمعنى « حاكم » و « شاسو » بمعنى « بدوى » . ومن الجائز أن كلمة « شاسو » تحولت فى اللغة اليونانية ـ التى كتب بها مانيتون ـ إلى كلمة «سوس» كما تحولت فى اللغة القبطية فيما بعد إلى كلمة « شوس » . وعلى ذلك فإن معنى هذا الاسم عند مانيتون هو « حاكم ـ أو حكام ـ البدو أو الرعاة » . إلا أن الرأى الذى اتفق عليه المؤرخون وعلماء اللغة المصرية القديمة هو أن كلمة « هكسوس » جاءت من كلمة مصرية قديمة كانت مركبة من كلمتين هما « حقاو » و « خاسوت » ومعنى هاتين الكلمتين معًا هو « حكام الأقاليم الأجنبية » وهذا هو الرأى الراجح الآن .

* وبالرغم من أن المصريين القدماء أطلقوا على هؤلاء الهكسوس اسما شاملا وهو «عامو » بمعنى انهم من الشعوب الآسيوية ، فمن المؤكد فعلاً أن الغالبية العظمى من الهكسوس كانوا من الآسيويين . وهناك نظريات حديثة قال بها بعض المؤرخين وعلماء الانثروبولوجى ـ أى علم دراسات الانسان ـ وهى أن الساميين هم العنصر الغالب للهكسوس ، وانهم كانوا من سلالات وطوائف لغوية مختلفة . . فكان بينهم جماعات من الجنس « الهندى ـ إيرانى » الذين كانوا يعيشون فى سهول آسيا الوسطى ، ومن «الحيثيين » الذين كانوا يعيشون فى سهول وجبال آسيا الصغرى وشرقها ، ومن «الحوارنيين » الذين كانوا يعيشون فى بعض مناطق الأراضى السورية .

* ومع ذلك فهناك رأى قال به أحد المؤرخين القدماء حاول به أن يثبت أن الهكسوس كانوا من اليهود . . فما هى حقيقة هذا الادعاء . . ؟!

الهكسوس .. هل هم من اليهود ؟

فى القرن الأول الميلادى ـ أى بعد طرد الهكسوس من مصر بنحو ستة عشر قرنا أو أزيد قليلا ـ ظهر مؤرخ يهودى اسمه « فلافيوس يوسفوس » حاول أن يبرهن فى كتاباته على أن اليهود والهكسوس من عنصر واحد هو عنصر « العبرانيين » . ويبدو أن هذا المؤرخ اليهودى كان من الرواد الأوائل الذين يلوون الحقائق ويبتدعون الأكاذيب ويلعبون فى ثوابت التاريخ حتى يرفعوا من شأن اليهود ولو كذبًا ، ويدعون بأن لهم أدواراً مارسوها أو حضارة صنعوها ، وذلك لمواجهة كتابات المؤرخين الإغريق القدامى الذين كانوا يحتقرون اليهود ويحطون من شأنهم . ولعل أوضح دليل على كذب هذا المؤرخ اليهودى هو هذا الرأى العشوائى الذى كتبه مؤكداً فيه أن الهكسوس خرجوا من مصر قبل ألف سنة من نشوب حروب « طروادة » التى خلدها الشاعر الإغريقى «هوميروس » فى « الإلياذة » و « الأوديسة » .

* وقد قام علماء التاريخ والآثار المحدثون بتفنيد هذا الكلام الذى ذكره يوسفوس فى كتاباته فلم يجدوا له أية علاقة بالثوابت التاريخية التى ذكرها المصريون القدماء عن فترة احتلال الهكسوس لمصر ، ولا بالشواهد الأثرية التى تم العثور عليها فى مصر وفلسطين والتى يرجع تاريخها إلى تلك الفترة . ويقول جميع المؤرخين المحدثين إن القول بأن اليهود والهكسوس من عنصر العبرانيين هو قول لا يؤيده سند من العلم أو التاريخ ، وهو قول « مغرض » إلى حد كبير ورد فى كتابات مؤرخ يهودى يؤرخ لواقعة تاريخية حدثت بمصر قبل ما يزيد على ألف وستمائة سنة من مولده . ولذلك فقد اعتبر المؤرخون المحدثون ان كتابات يوسفوس فى هذا الشأن تعتبر من الناحية العلمية بعيدة تمامًا عن مجال «المصادر التاريخية » التى يعتد بها أو يوثق فيها .

* أما المؤرخ المصرى القديم « مانيتون » الذى عاش فى مدينة « سمنود » بالوجه البحرى فى القرن الثالث قبل الميلاد ـ أثناء العصر البطلمى ـ فقد كتب عن فترة احتلال الهكسوس لمصر بأسلوب يقطر حزناً وألما ، ويصف فيه تلك الكارثة والمصيبة الكبرى التى تعرضت فيها مصر لأول احتلال أجنبى لأراضيها . وقال بالنص :

« لا أدرى لماذا نزلت بنا صاعقة من غضب الإله . . فقد تجرأ قوم من أصل وضيع من الشرق على غزو بلادنا . . وتسلطوا على البلاد بدون صعوبة وبدون نشوب معركة حربية . . وبعد أن تغلبوا على رؤساء وحكام الأقاليم أحرقوا المدن بوحشية . . وأزالوا معابد الآلهة من أساسها . . وعاملوا الأهالى بكل قسوة . . فقتلوا الكثيرين . . وسبوا نساء وأطفال أناس آخرين . . ونصبوا واحداً منهم اسمه [سالاتيس] وجعلوه ملكا» .

* وبالرغم من الوثائق المصرية القديمة التى كتبها المصريون القدماء فى البرديات وعلى جدران المعابد والمقابر ، خصوصاً فى فترة تحرير البلاد من الهكسوس وفى الفترات التالية على طردهم من مصر بصفة نهائية ، إلا ان فترة احتلال الهكسوس لمصر مازالت تعتبر من الفترات المظلمة فى التاريخ المصرى القديم ، ويكتنفها الضباب الذى يخفى الكثير من المعلومات ، فيما عدا معلومات قليلة يمكن أن نستشف منها بعض الجوانب التاريخية والأثرية التى تساعدنا على تكوين صورة واضحة إلى حد ما عن أحوال البلاد خلال فترة الاحتلال التى استمرت نحو مائة وخمسين سنة طبقا لأرجح الآراء .

* وتدل بعض الشواهد التاريخية والأثرية المصرية القديمة على أن رؤساء الهكسوس بعد أن استقر حكمهم فى مصر تشبهوا بالملوك المصريين القدماء ، واتخذوا الإله المصرى القديم « ست » ـ بما عرف عنه من ميول شريرة ـ إلهاً لهم وأطلقوا عليه اسم « سوتخ » . كما تركوا آثاراً هى فى حقيقة الأمر آثار اغتصبوها وانتحلوها لأنفسهم من الآثار التى شيدها وتركها بعض الملوك المصريين الذين حكموا مصر قبل عصرهم البغيض .

الهكسوس : ورب ضارة نافعة

عندما وقعت مصر تحت احتلال الهكسوس - وهو أول احتلال أجنبى فى تاريخ البلاد - اعتبر المصريون القدماء هذا الاحتلال غضبة إلهية هبطت عليهم كالصاعقة ، شلت تفكيرهم فى بداية الأمر ، وأسلمتهم إلى الخنوع والاستكانة ، فاستسلموا للمظالم الهائلة التى فرضها عليهم الحكام الجدد ، وكانوا يقتطعون - غصبا - من قوتهم وقوت أولادهم ، ومن انتاج حقولهم ومراعيهم وصناعاتهم ، ليدفعوا فروض «الجزية » التى فرضها عليهم حكام أجانب يبغون ملء بطونهم وخزائنهم بخيرات مصر وأموالها دون أن يحققوا للمصريين أى عائد سوى تخريب البلاد وإشاعة الفساد والظلم والاضطهاد .

* ولكن بمرور السنوات الطوال ، تنبه بعض أبناء مصر المخلصين إلى أبعاد تلك المصيبة الكبرى التى حاقت ببلادهم ، فتدارسوا أسبابها ، ووعوا الدرس جيدا ، وأعلنوا بينهم وبين أنفسهم وبكل صراحة ووضوح ، أن الأجانب لا يفكرون فى احتلال مصر إلا إذا شعر هؤلاء الأجانب بأن مصر أصبحت ضعيفة ولقمة سائغة يطمع فى التهامها الطامعون . . وأن مصر لا تصبح ضعيفة إلا بضعف نظام الحكم الذى يحكمها . . وأن السبب الرئيسى لضعف نظام الحكم هو فساد الحكام وانصرافهم إلى تحقيق مصالحهم الخاصة وتجاهل مصالح البلاد وأهل البلاد .

* وسوف نرى فيما بعد أن قادة الانتفاضة المصرية التى اشتعل أوارها ضد الهكسوس ، وضعت فى اعتبارها الأول القضاء على الخونة من حكام الأقاليم المصريين الذين تعاونوا مع المحتلين مقابل البقاء فى مناصبهم وبشرط أن يصبحوا سوط عذاب يلهب الشعب المصرى المطحون بالضرائب الباهظة وبمظالم لا أول لها ولا آخر . وهكذا

وضع المصريون القدماء قاعدة وطنية لكل أجيال المصريين فى كل زمان ، وهى أن من الضرورى دائما على كل انتفاضة مصرية ضد قوى أى احتلال أجنبى لبلادهم ، أن يتم القضاء أولاً على تلك الفئات الضالة التى تتعاون مع المحتلين أياً كانت جنسياتهم ، وأياً كان الزمان الذى وقع فيه الاحتلال .

* كذلك فقد تنبه قادة الانتفاضة المصرية ضد الهكسوس إلى أن احتلال الأجانب لبلادهم يمكن استغلاله كمشعل أو شرارة أولى لتزكية الحس الوطنى فى صدور الشباب، وإلهاب مشاعر الكراهية ضد المحتلين ، فيسهل بذلك تنظيم صفوف المقاومة لمجابهتهم والانقضاض عليهم وتحرير البلاد من مظالمهم وشرورهم .

* أما أهم الدروس التى استفاد بها المصريون القدماء من واقعة احتلال الهكسوس، فهو درس « المركبوت » . . ﴿ والمركبوت كلمة دخلت إلى اللغة المصرية القديمة ومعناها: الخيول والعربات . . ويقول علماء اللغات إن أصلها مأخوذ عن اللغات السامية ﴾ . . وقد اتفق كثير من المؤرخين على أن الهكسوس هم الذين أدخلوا الحصان إلى مصر ، وليس هناك ما يؤيد هذه النظرية بالرغم من قبول الجميع بها . وهناك نظرية أخرى تقول إن الهكسوس وفدوا إلى مصر مشاة ، أما الخيول والمركبات فقد أدخلها « الآريون » إلى مناطق الشرق الأدنى فى بداية القرن السابع عشر قبل الميلاد ، ودخلت الخيول إلى مصر فى أواخر سنوات حكم الهكسوس لمصر قادمة من فلسطين .

* وعلى أية حال وأياً كان مدلول تلك النظريات ، فقد استفاد المصريون القدماء من فكرة « المركبوت » – أى المركبات التى تجرها الخيول – واعتمدوا عليها اعتماداً مطلقا، بعد أن طوروا شكل وتصميم تلك المركبات وجعلوها ذات عجلتين ، وصنعوا أجزاءها من الخشب والجلد والمعدن ، وتتسع لراكبين هما السائق والمحارب ، وانتجوا منها آلافاً اعتبروها من أهم أسلحة الجيش ، وأطلقوا عليها اسم « سلاح الفرسان » أو « سلاح المركبات الحربية الملكية » . وقد اقتضى هذا الأمر قيام المصريين بتربية آلاف الخيول ، استعداداً لمعركة التحرير ، ومعارك بناء الامبراطورية المصرية فى الشمال والجنوب وفى الشرق والغرب .

الهكسوس : تحرشات ومناوشات متبادلة

كان احتلال الهكسوس لمصر نوعاً من الاستعمار الاستيطانى أشبه باحتلال اليهود لفلسطين أو بسيطرة البيض الأوربيين على بعض الدول والشعوب الأفريقية . ويعتبر هذا النوع من الاستعمار من أسوأ أشكال الاستعمار وأكثرها استغلالاً وإذلالاً للشعوب المستعمرة . ويقول المؤرخون إن سيطرة الهكسوس على حكم مصر اقتصرت بصفة فعلية مباشرة على أقاليم الدلتا وأقاليم مصر الوسطى ، وأنهم كانوا يباشرون أعمال حكومتهم المركزية فى العاصمة التى أقاموها فى مدينة « أواريس » بشرق الدلتا ، وعينوا حكاماً للأقاليم المصرية سواء من الهكسوس أنفسهم أو من بعض المصريين الذين قبلوا التعاون معهم .

* أما حكام أقاليم الصعيد « الجوانى » - بدءاً من جنوب أسيوط - فقد كانوا مستقلين إلى حدما ولا يخضعون للهكسوس بطريقة مباشرة ، وإن كان بعضهم يرسل الجزية إلى ملوك الهكسوس بين حين وآخر ، أو يتلقى بعض الأوامر من هؤلاء الملوك ليقوم بتنفيذها أو عدم تنفيذها حسب الأحوال التى كانت سائدة فى تلك الأقاليم .

* وفى إقليم « طيبة / الأقصر » قام حكامه بتكوين أسرة ملكية هى الأسرة السابعة عشرة . وتدل الشواهد التاريخية ومدونات التاريخ القديم على أن هؤلاء الملوك الذين انتموا إلى تلك الأسرة كانوا يناوشون ملوك الهكسوس كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . وكانوا معروفين بحب الوطنية المصرية أسوة بملوك الأسرة الثانية عشرة الذين خرجوا من نفس الإقليم وقاموا باعادة توحيد مصر بعد القضاء على مشاكل فترة « الاضمحلال الأول » . وهكذا هيأ القدر مرة أخرى فرصة خروج المخلصين لمصر من أبناء هذا الأقليم لقيادة أول انتفاضة مصرية ضد المحتلين الهكسوس .

* ومن الطريف أن نذكر هنا أن المخلصين من الوطنيين المصريين كانوا منتشرين أيضا فى أقاليم أخرى . وفى بداية الأمر لم يكن لدى هؤلاء الوطنيين الأوائل ما يكفيهم من سلاح ، كما كانت تنقصهم القيادة الجريئة التى تقودهم إلى محاربة المحتلين وجهاً لوجه. لذلك فقد لجأ هؤلاء الوطنيون إلى أضعف الإيمان ، وهو محاربة الأعداء بالسحر والدعاء عليهم وانزال اللعنة على حكامهم وعلى أولادهم وعلى كل من يتصل بهم ويعاونهم . وقد عثر الأثريون - فى مناطق مختلفة من مصر - على بعض الدمى وكسرات الأوانى الفخارية كتبت عليها أسماء أعداء مصر مقرونة بلعنات يطلق عليها المؤرخون الآن مصطلح « نصوص اللعنة » . والغرض من هذه الطريقة السحرية هو تحطيم وتكسير هذه الدمى والأوانى فى احتفالات خاصة ووسط مراسم وطقوس دينية وسحرية معينة لتحل اللعنة على أصحاب الاسماء المدونة عليها .

* أما الوطنيون المصريون الذين كانوا يفكرون فى الانتفاضة ضد أعداء مصر بطريقة فعلية وواقعية ، فكانوا يتداولون ويتناقشون فيما بينهم فى الخطط العملية التى تمكنهم من مواجهة الأعداء والتخلص من سيطرتهم على البلاد وأهلها . ورأوا أن من الضرورى أولاً وقبل كل شىء نشر الكراهية ضد هؤلاء الأعداء ، وإزكاء الروح الوطنية فى صدور الشباب ، والبدء فى التسلح بأنواع جديدة من الأسلحة مماثلة للأسلحة التى استعملها الهكسوس فى السيطرة على مصر . ومن المعروف أن الهكسوس كانوا يستخدمون أسلحة مصنوعة من البرونز والحديد ويستخدمون العربات الحربية التى تجرها الخيول .

* ولا شك فى أن جواسيس الهكسوس كانوا ينقلون إليهم فى « أواريس » ما كان يدور فى أقليم طيبة من أفكار ومناقشات تتعلق بالتدابير التى يسعى إليها المصريون للتخلص من حكم الهكسوس ووجوب طردهم من مصر .

* وهناك قصة طريفة عثر على نص لها كتب بعد نحو ٤٠٠ سنة من طرد الهكسوس من مصر ، وهى أن أحد ملوك الهكسوس واسمه « أبو فيس » أرسل إلى « سقنن رع - تاعا » الثانى ، وهو أحد أواخر ملوك الأسرة السابعة عشرة رسالة للتحرش به يقول فيها إن أفراس النهر فى طيبة عالية الصوت ومزعجة وتحرمه من النوم فى قصره ﴿ الذى يبعد

عن طيبة بنحو ألف كيلو متر ﴾ ليلاً أو نهاراً . ولذلك فهو يطلب من « سقن رع – تاعا » أن يـكتها أو يقضى عليها . وبطبيعة الحال فقد كان « أبو فيس » يقصد إسكات الأصوات المناوئة للهكـسوس والتى تضمر العداء لهم . . فماذا فعل الملك العظيم « سقنن رع – تاعا » لمواجهة هذا التحدى . . ؟

obeikandi.com

أول شهيد فى حرب التحرير

تقول القصة التى كتبت بعد نحو أربعمائة سنة من نجاح المصريين فى طرد الهكسوس وتخليص البلاد من شرور هذا الاحتلال الأجنبى ، إن ملك الهكسوس «أبوفيس » إدعى أن أفراس النهر فى « طيبة / الأقصر » عالية الصوت ومزعجة وتمنعه من النوم ليلاً ونهاراً فى عاصمة الهكسوس بشرق الدلتا والتى تبعد بنحو ألف كيلو متر عن طيبة . وعندما تسلم الملك « سقن رع – تاعا الثانى » هذه الرسالة المهينة تمالك أعصابه أمام رسول ملك الهكسوس ، بل وأمر باكرام هذا الرسول ومنحه بعض الهدايا. وبعد انصراف الرسول ، أمر « سقنن رع » بعقد اجتماع يحضره كبار رجال الدولة ليتشاوروا فى الأمر . وما أن تليت عليهم هذه الرسالة حتى أصابهم الوجوم وعجزوا عن نصيحة الملك بخير أوشر .

* وللأسف الشديد فإن البردية التى كتبت عليها تلك القصة كانت ممزقة ومهترئة عند هذا الفصل من القصة فلم نعرف لهانهاية مكتوبة . غير أن المؤرخين وعلماء الآثار لم يقفوا مكتوفى الأيدى أمام هذا الموقف ، فبحثوا فى الشواهد التاريخية والأثرية عن الأدلة والنتائج التى أدت إليها تلك القصة المبتورة .

* يقول المؤرخون إن الأمر لا يخرج عن أحد احتمالين : الأول منهما هو استجابة «سقنن رع » لمطالب ملك الهكسوس باسكات أفراس النهر ﴿ والمقصود طبعًا إسكات الأصوات الوطنية وأصحاب الدعوة إلى تنمية الحس الوطنى وإشاعة كراهية الهكسوس فى صدور الشباب والعمل بكل طريقة ممكنة استعداداً لتحرير البلاد من مظالم هذا الحكم الأجنبى البغيض ﴾ . . أما الاحتمال الثانى فهو ان الرسالة كانت استفزازاً وتحدياً للملك « سقنن رع » أدت إلى تحريضه على التعجل بمواجهة غطرسة هؤلاء المحتلين الأجانب الذين يذلون الشعب المصرى فى الدلتا ومصر الوسطى .

* وبطبيعة الحال فإن الاحتمال الأول يعتبر مرفوضاً لأنه لو كان صحيحاً لما أصبح للقصة أى معنى ، بل واعتبرت قصة معادية لمصر وللمصريين وما كانت تستحق أن تكتب فى النصوص المصرية القديمة . أما الاحتمال الثانى فتؤيده الشواهد الأثرية الظاهرة فى مومياء الملك « سقن رع » التى عثر عليها ضمن خبيئة الدير البحرى عام ١٨٨٠م ، وهى معروضة الآن بالمتحف المصرى بالقاهرة . فقد وجدت المومياء بداخل تابوت كتب عليه اسم الملك مقروناً بلقب « الشجاع » الأمر الذى يدل بوضوح على شجاعته التى جعلته يتخطى كل النصائح التى وجهت إليه بضرورة الانتظار وعدم إعلان الحرب على الهكسوس إلا بعد الاستعداد الحربى وتجهيز الجيش وتسليحه . ولكن الملك قاد ما استطاع تكوينه من فرق الجنود ، وتوجه إلى الدلتا للاغارة على الهكسوس فى عاصمتهم . ولكن عملاً بالقاعدة الشهيرة التى تقول إن الكثرة تغلب الشجاعة فقد سقط الملك شهيداً فى أرض المعركة .

* ويصف عالم الآثار والمؤرخ « إليوت سميث » كيفية استشهاد « سقنن رع » استناداً إلى مواضع وأوصاف الجروح التى وجدت فى جمجمته والتى يبدو منها إن الأعداء قد طعنوه من الخلف بخنجر تحت أذنه اليسرى طعنه غائرة اخترقت رقبته ، ثم انهالوا عليه بالبلط والسيوف والعصى فهشموا وجهه . وبالرغم من أن المومياء قد حنطت بسرعة وباختصار نظراً لظروف المعركة ، فإن وجه الملك الشهيد يعبر عن الألم الشديد وهو يجز على لسانه باسنانه وقت الاحتضار .

* وتدل المومياء على أن الشهيد « سقنن رع » كان عظيم البنيان مفتول العضلات ويبلغ طول جسمه ١٧٠ سم وشعره أسود كثيف ومجعد ، وكان حليق اللحية ولا يزيد عمره على ثلاثين عاماً .

● ويقول المؤرخون القدماء والمحدثون إن « سقنن رع » يعتبر واحداً من أعظم ملوك مصر وأكثرهم مجداً فى التاريخ المصرى القديم . ويذكرون أن عهده كان الشرارة الأولى لبدء النضال الفعلى المستميت لطرد الهكسوس من مصر ، كما أن كفاحه واستشهاده فى أول معركة حربية نشبت بين المصريين والهكسوس أدى إلى اشتعال الحركة الوطنية بين كل المخلصين من أبناء البلاد فى كافة الأقاليم المصرية .

وطنية المرأة المصرية أثناء حرب التحرير [١]

ليست لدينا حتى الآن أية دلائل أثرية تسجل الدور الذى قامت به النساء المصريات من عامة الشعب فى الحركة الوطنية التى تحولت إلى نزاع مسلح ضد الهكسوس كمحتلين أجانب استوطنوا الغالبية العظمى من أرض مصر ، وعاثوا فيها كل ألوان الظلم ، وأشاعوا فيها الفساد ، وجندوا بعض الخونة من حكام الأقاليم فى الدلتا ومصر الوسطى ليكونوا عونا لهم فى ممارسة أعمال الاحتلال البغيض وأهمها جباية الأموال من جزية وضرائب ورسوم .

* إلا أن بعض المؤرخين وعلماء الآثار ـ من الفرنسيين والألمان ـ افترضوا بعض «التخمينات » عن مواقف المرأة المصرية من بنات الشعب من مظالم هذا الاحتلال ، فمما لاشك فيه أن المرأة كانت متضررة من تلك المظالم أسوة بالرجال ، احساساً منها بأن جزءاً لا يستهان به من قوتها وقوت أولادها وعوائد عملها المشترك مع الرجل سواء فى الزراعة أو الرعى كان يذهب هدراً إلى محتل أجنبى غاصب مستغل . . فكان من المتصور منطقيا أن تقف المرأة مع الرجل سواء بسواء حينما شاعت بين الشعب المصرى الأفكار الوطنية التى نصبت العداء ضد هؤلاء الهكسوس وضد المتعاونين معهم من حكام الأقاليم . ومن المفترض كذلك ، عندما تحولت تلك الأفكار إلى انتفاضة تتخذ العنف وسيلة للتخلص من الهكسوس ، أن المرأة المصرية من بنات الشعب آزرت الرجال فى مسعاهم الوطنى ، وكانت تشجع هؤلاء الرجال سواء أكانوا من الآباء أو من الأزواج أو من الأبناء على المضى قدماً للتخلص من هذا البلاء الأجنبى الذى يستولى على خيرات البلاد .

* وإذا كانت الآثار لم تترك لنا أية شواهد موثقة عن تلك المواقف النبيلة للمرأة المصرية من بنات الشعب ، إلا أننا لحسن الحظ عثرنا على مجموعة من الشواهد

التاريخية والأثرية تؤكد لنا الدور الوطنى الذى قامت به بعض نساء الطبقة الحاكمة فى أواخر عصر الأسرة السابعة عشرة ، وكانت على رأسهن الملكة « تيتى شرى » زوجة الملك « تاعا الأول » ووالدة الملك الشهيد الشجاع « سقنن رع » .

* لم تكن « تيتى شرى » من سلالة الملوك ، بل كانت فتاة عادية من بنات الشعب تزوجها الملك « تاعا الأول » وأجلسها معه على عرش طيبة وأقاليم جنوب مصر التى لم تكن خاضعة تماماً لسيطرة الهكسوس . وقد ورد اسم هذه الملكة خمس مرات فى الوثائق الأثرية للأسرة الثامنة عشرة . كما عثر لها على تمثالين متماثلين تماماً من كل الوجوه من حيث الحجم والجلسة والملامح والكتابة المدونة عليهما . وتدل هذه الشواهد الأثرية على أن « تيتى شرى » كانت ذات شخصية قوية ، وانها عاشت طويلاً حيث ماتت فى عهد حفيدها العظيم « أحمس الأول » الذى اعتبر أول أبطال حروب التحرير فى تاريخ العالم . كما تدل الشواهد التاريخية على أن الحركة الوطنية المصرية ضد الهكسوس وحلفائهم قد بدأت فى عهد زوجها « تاعا الأول » . ومن المؤكد انها اشتركت فى تلك الحركة بعد موت زوجها وتولى ابنه وابنها « سقنن رع » الشهيد الشجاع عرش طيبة . ومن المؤكد أيضا أنها كانت وراء تشجيع « سقنن رع » على رفض تلك الرسالة المهينة التى وصلته من « أبو فيس » ملك الهكسوس لمطالبته باسكات أصوات أفراس النهر فى طيبة والقضاء عليها لأنها تزعجه وتقض مضجعه وتمنع عنه النوم ليلاً ونهاراً وهو قابع فى قصره فى مدينة أورايس عاصمة الهكسوس بشرق الدلتا والتى تبعد عن طيبة بنحو ألف كيلو متر . وكما ذكرنا من قبل فقد كان « أبو فيس » يقصد بأفراس النهر تلك ، أصوات الوطنيين المصريين الذين أخذوا يدبرون أمورهم لمواجهة الهكسوس عسكرياً ويدعون إلى إشعال الحرب ضدهم وطردهم من البلاد .

* ومن المعروف تاريخياً أن « سقنن رع » كان متزوجاً من اخته الملكة « إياح حتب » وهى الابنة البكر للملكة « تيتى شرى » . . وكانت هى الأخرى واحدة من أعظم الشخصيات النسائية فى تاريخ مصر القديم ، وكانت لها مكانة عظمى لدى المصريين فى عهدها وماتلاه من عهود ، فهى أم الشقيقين « كامس » و « أحمس » اللذين حررا مصر من أول وأسوأ احتلال أجنبى فى تاريخها المجيد .

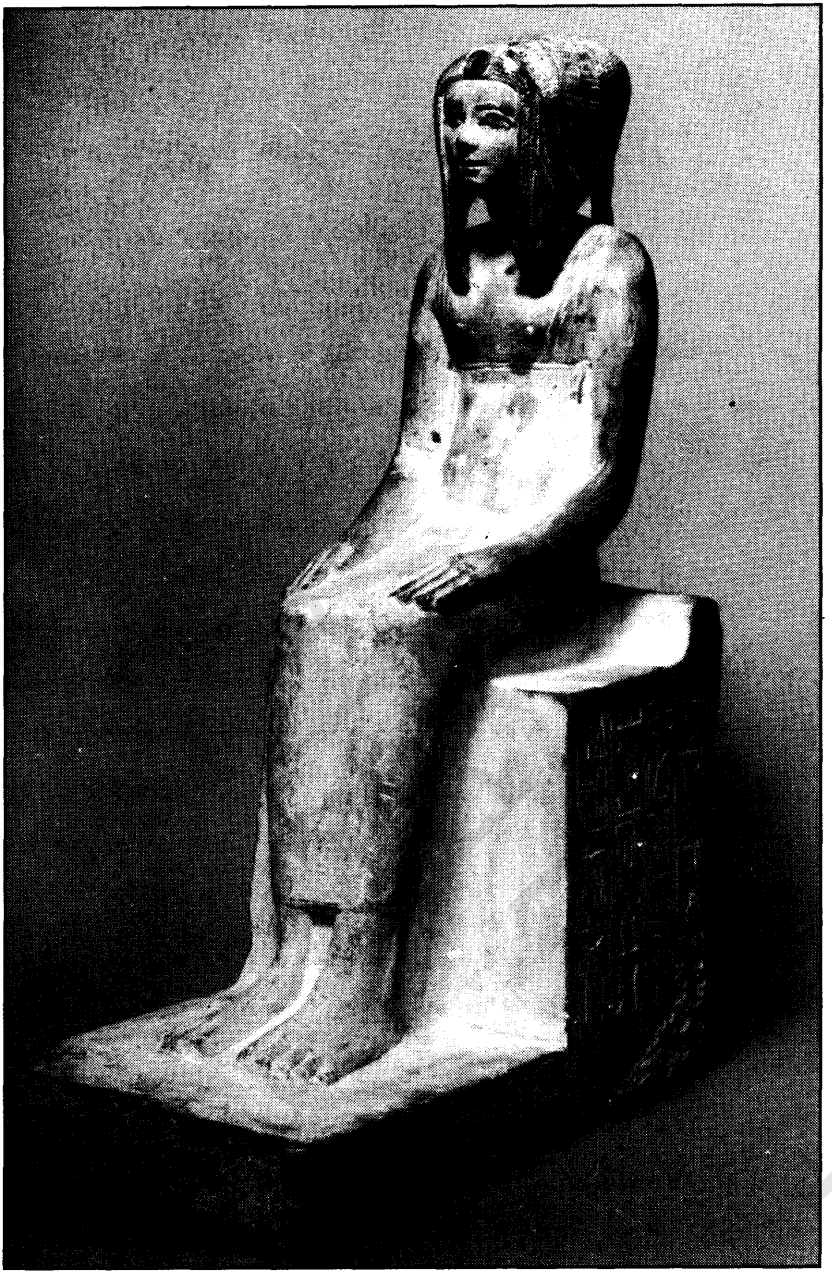

تمثال من الحجر الجيرى للملكة « تيتى شرى » فى شبابها

وطنية المرأة المصرية أثناء حرب التحرير [٢]

فى عام ١٨٥٩ م عثرت إحدى بعثات التنقيب عن الآثار فى منطقة ذراع أبو النجا بغرب الأقصر على تابوت الملكة « إياح حتب » . وكانت هذه البعثة تعمل تحت إشراف ماريت باشا الذى كان موجوداً وقتذاك فى القاهرة . ولذلك فقد نقل التابوت إلى مبنى مديرية قنا ، وأمر مدير المديرية بفتح التابوت لمعرفة ما يحتويه ، فإذا به أمام مجموعة من الحلى والمجوهرات الثمينة كانت تزين مومياء الملكة ، فقرر المدير أن يستولى على تلك المجوهرات ويقوم بتهريبها إلى الخارج . ولكن أحد الموظفين كتب خطاباً عاجلاً إلى ماريت أخبره فيه بأمر تلك السرقة وبأن المجوهرات قد حملت فى قارب نيلى أبحر من قنا متجها إلى الشمال توطئة لتهريبها إلى خارج البلاد . وعلى الفور استصدر ماريت قراراً وزاريا بالاستيلاء على أى قارب يحمل آثاراً . . وبالقرب من مدينة سمنود ، عثر ماريت على القارب الذى كان ينوى تهريب التابوت بما كان فيه من مجوهرات . وتم انقاذ هذا الكنز الثمين من أيدى اللصوص .

* وسارع ماريت بعرض هذه المجوهرات على سعيد باشا الذى كان موجوداً آنذاك فى الاسكندرية وحكى له قصة مطاردة اللصوص ، فاستغرق سعيد باشا فى الضحك ، وقام بالاستيلاء على إحدى قطع الحلى وكانت عبارة عن سلسلة سميكة من الذهب يبلغ طولها أكثر من مترين وبها جعران مصنوع من اللازورد . وأهدى هذه التحفة الأثرية إلى أحب زوجاته إلى نفسه ، ولكنه أعادها إلى متحف بولاق خوفاً من لعنة الفراعنة .

* كانت المجوهرات تتضمن قطع الحلى الخاصة بالملكة وهى عبارة عن بعض

الأساور والعقود بالاضافة إلى مجوهرات أخرى أهداها إليها كل من ابنها الملك « كامس » وابنها الملك « أحمس » وهما الملكان اللذان قاما بالحرب ضد الهكسوس واحداً بعد الآخر. ولذلك فلم يكن غريباً أن تكون هذه الهدايا ذات طابع حربى ، فهى تتكون من مجموعة من البلط والخناجر والحراب المصنوعة من الذهب والمزينة بزخارف من الأحجار الكريمة ، بالاضافة إلى عقد من الذهب واللازورد كان يسمى « عقد الذبابة الذهبية » وهو عبارة عن « نوط عسكرى » كان يمنح إلى الجنود والضباط المحاربين الذين يبلون بلاء حسنا فى ميادين القتال والمعارك الحربية .

* وقد ذكرنا من قبل ان الملكة « إياح حتب » هى ابنة الملكة الوطنية العظيمة « تيتى شرى » وزوجة الملك الشجاع الشهيد « سقنن رع » وأم الملكين « كامس » و « أحمس » . وتدل الشواهد التاريخية والأثرية على أن هذه الملكة قد ورثت الحماس الوطنى عن أمها وعن زوجها الشجاع . وقد أتاحت لها الظروف بسبب صغر سن ابنيها اللذين توليا العرش واحداً بعد الآخر أن تكون وصية على كل منهما . وبسبب انشغال هذين الابنين فى الحرب المقدسة لتحرير البلاد ، فقد كانت تتولى ادارة شئون البلاد وتسيير أمور الدولة بأعلى قدر من الكفاءة .

* وقد تم العثور فى معابد الكرنك على لوحة تذكارية أقامها الملك « أحمس » لتمجيد أعماله والأعمال العظيمة التى قامت بها والدته « إياح حتب » وقد ترجمت النصوص الهيروجليفية المكتوبة على هذه اللوحة ووجدت بينها فقرة تقول : « اصغوا يا أهل الوجه القبلى ويا رجال الدين ويا أهلى الوجه البحرى ويا أيها الناس جميعاً . . قدموا المديح لسيدة البلاد [وسيدة جزر بحرإيجه] . . فاسمها رفيع الشأن فى مصر وفى كل بلد أجنبى . . فهى التى تضع الخطط للجماهير . . وهى التى جمعت جيوشها . . وجمعت شتات الذين هربوا . . وهدأت روع الوجه القبلى . . وأخضعت عصاته . . وهى زوجة ملك وأخت ملك وأم ملك . . الزوجة الملكية إياح حتب العائشة أبدا » .

* ويقول بعض المؤرخين إن هذا النص يؤكد وجود تحالف سياسى وحربى بين مصر وحكام جزيرة كريت والجزر المحيطة بها فى بحر إيجة لمحاربة فلول الهكسوس الهاربة بعد

فرارها من مصر . ويقولون أيضا إن هذه المرأة العظيمة كانت الروح التى أقالت مصر من عثرتها . وهى التى وضعت الخطط لازكاء الحماس والروح الوطنية بين الجند ، والقضاء على عصيان وثورات بعض حكام الأقاليم المصرية الممالئين للهكسوس .

* وقد عاشت « إياح حتب » عمراً طويلاً تعدى السبعين . وفى أواخر أيامها تنازلت عن مركز سيدة مصر الأولى للملكة « أحمس نفرتارى » زوجة ابنها « أحمس الأول» . وكانت هذه المرأة الأخيرة قوية الشخصية وعظيمة الشأن وشاركت زوجها فى كفاحه الحربى حتى انتصر على الهكسوس انتصاراً ساحقاً ، وحرر مصر من شرورهم .

obeikandl.com

وطنية المرأة المصرية .. أثناء حرب التحرير [٣]

حين كان الملوك العظام « تاعا الأول » والشهيد الشجاع « سقنن رع » وإبناه العظيمان « كامس » و « أحمس الأول » يصعدون الكفاح والنضال ضد احتلال الهكسوس لمصر حتى تمكن بطل التحرير « أحمس الأول » من طردهم وتشتيت فلولهم وتطهير أرض مصر من دنس هذا الاحتلال البغيض . . قامت أمهات هؤلاء الملوك وزوجاتهم وبناتهم بأدوار وطنية سجلها التاريخ .

* وقد عرضنا من قبل النصوص المسجلة تاريخيا وأثرياً والتى تشهد على الروح الوطنية المتحمسة والأدوار السياسية والاقتصادية والإدارية التى قامت بها ابنة الشعب الملكة « تيتى شرى » زوجة تاعا الأول وأم الملك الشهيد سقنن رع . . كما عرضنا الدور الوطنى العظيم الذى قامت به الملكة « إياح حتب » زوجة سقنن رع وأم الملكين «كامس » و « أحمس الأول » حين كانت وصية على عرش كل منهما ، وحين تفرغ كل منهما لقيادة الجيش المصرى فى كفاحه ضد المحتلين .

* ونستعرض فيما يلى دوراً عظيماً من الجهود التى قامت بها السيدات المصريات الوطنيات أثناء حرب التحرير ، وهو الدور الذى قامت به الملكة « أحمس نفر تارى » زوجة الملك « أحمس الأول » . وتدل جميع الشواهد التاريخية والأثرية التى تم العثور عليها حتى الآن على ارتباط تاريخ تلك المرأة العظيمة بانجازات زوجها بطل التحرير . وهناك نصوص قاطعة توضح لنا انها كانت تشاركه فى الحكم ، وكان لها دور بارز فى ادارة شئون البلاد أثناء انشغاله بحرب التحرير وإزالة الآثار السياسية البغيضة التى تركها الهكسوس أثناء احتلالهم لمصر ، وتفرغه للقضاء على كل القلاقل التى كان يثيرها بعض الخونة من حكام الأقاليم الذين كانوا متحالفين مع الهكسوس حتى تمكن من

توحيد البلاد وتأسيس أسرة ملكية جديدة هى الأسرة الثامنة عشرة ، التى أدخلت التاريخ المصرى القديم إلى عصر جديد هو عصر « الدولة الحديثة » الذى بلغت فيه مصر أوج عظمتها وشهرتها المجيدة فى العالم القديم كله .

* وقد حازت « أحمس نفرتارى » شهرة واسعة ومكانة رفيعة لدى شعب مصر لعدة مئات من السنين بعد العصر الذى عاشت فيه . فقد أقيم لها معبد جنائزى كان الناس يقصدونه لتقديم القرابين إلى روحها والدعاء لها . وتدل الشواهد الأثرية على أنها ـ فى أثناء حياتها ـ كانت تخرج للناس فى موكب ملكى حافل يلتف الناس حوله لتحيتها . وبعد موتها كانت تعد لها مواكب دينية فى مناسبات الاحتفال بالأعياد الدينية والشعبية . كما تدل الشواهد التاريخية على انها مارست الوصاية على عرش مصر بعد وفاة زوجها وتولى ابنه وابنها « أمنحتب الأول » وكان صغير السن ، فكانت تدير كافة شئون الحكم بكفاءة عالية .

* ومن الغريب أن علماء الآثار المصرية عثروا على عدة تماثيل لها فى حين لم يعثر لزوجهاالعظيم « أحمس الأول » على تمثال واحد حتى الآن ! وقد توفيت بعد أن طال بها العمر حتى عاصرت عهد حفيدها « تحوتمس الأول « إبن إبنها « امنحتب الأول » .

* وبالرغم من المكانة العظيمة التى بلغتها الملكة « أحمس نفرتارى » فلم يتم العثور على قبرها حتى الآن . . ومع ذلك فقد تم العثور على التابوت الذى يحتوى على مومياءها ضمن مجموعة التوابيت الملكية التى عثر عليها فى خبيئة الدير البحرى . وتدل مومياؤها على أنها عندما ماتت كانت طاعنة فى السن وهزيلة الجسم وتكاد تكون صلعاء ، وتغطى رأسها باروكة ذات جدائل من الشعر المستعار . وهى محفوظة الآن بالمتحف المصرى بالقاهرة .

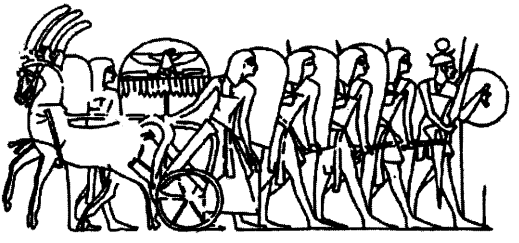

ظهور المؤسسة العسكرية فى مصر القديمة

لم تكن حرب تحرير مصر من احتلال الهكسوس ـ وهو أول احتلال أجنبى لأراضيها ـ حرباً هنية ولا سهلة ، بل كانت حرباً شاقة استغرقت عدة سنوات علمت المصريين ـ شعباً وحكاماً ـ دروساً لم يألفوها من قبل . . وغيرت مجرى إحساسهم بالوطنية والقومية المصرية .

* وحين زحف « أحمس » بجيشه الشعبى العظيم الذى خرج من طيبة متجهاً شمالاً نحو شرق الدلتا حيث تقع عاصمة المحتلين ، كانت جموع الشباب وكل من كان قادراً على القتال متحمساً لتحرير الوطن ، ينضمون إلى هذا الجيش الزاحف الذى بلغ تعداده ـ كما تقول وثائق التاريخ ـ نحو ٤٨٠ ألف مقاتل من الفرسان والمشاة المسلحين بمختلف أنواع الأسلحة ، بدءاً من الأسلحة التى تصلح للحرب والقتال وانتهاءً بالأسلحة البسيطة مثل العصى والشوم ! . . وكان جيشاً يشتعل حماساً ورغبة صادقة وتصميماً على تخليص الديار المصرية من عار الاحتلال .

* ولم تكن المعركة التى قادها « أحمس » بهذا الجيش الشعبى العظيم ضد الهكسوس وحدهم ، بل امتدت لتشمل القضاء على الخونة من حكام الأقاليم المصرية الذين تحالفوا مع الهكسوس . . وامتدت أيضا إلى جنوب البلاد حيث كان حكام النوبة قد تحالفوا بدورهم مع ملوك الهكسوس لتشتيت جهود الجيش المصرى الوليد بين معارك فى الشمال ومعارك فى الجنوب .

* وحين تم القضاء نهائياً على كل تلك المخاطر ، توحدت البلاد مرة أخرى وبدأ عصر جديد هو عصر « الدولة الحديثة » . . وبدأ المصريون يستظهرون الدروس

المستفادة من هذه التجربة المريرة التى مرت ببلادهم . . وبدأوا يعرفون جيداً أن بلادهم المليئة بالخيرات محاطة من الشرق والغرب بمناطق وبلاد قاحلة يطمع أهلها وسكانها فى الزحف إلى مصر للاستيلاء على تلك الخيرات . كما أصبح من الواضح تماماً أمام المصريين أن هؤلاء الأجانب لا يجرون على تحقيق أطماعهم مادامت مصر قوية يحكمها حكام أقوياء . . وأن قوة مصر تكمن فى جيش يتكون من شباب مدربين على حمل السلاح لاستعماله وقت اللزوم .

* وهكذا ارتبط عصر الدولة الحديثة بنشأة وظهور الإرهاصات الأولى للمؤسسة العسكرية المصرية منذ بداية عصر الأسرة الثامنة عشرة . وقد انكب كثيرون من أئمة المؤرخين وعلماء المصريات والمؤرخين العسكريين من أمثال : بريستيد وجاردنر وويلسون وهنلوك وغيرهم ممن درسوا التاريخ المصرى القديم والآثار المصرية القديمة ، وكانت لهم رؤيتهم العلمية التحليلية الخاصة فى تفسير الأحداث واستخلاص النتائج من واقع مئات الآلاف من النصوص المنقوشة على جدران المعابد وسراديب المقابر وعلى واجهات النصب التذكارية والمسلات والنصوص المدونة على صفحات البرديات ، وخلصوا جميعاً إلى استظهار القواعد والخطط التى قامت عليها ومارستها هذه المؤسسة العسكرية المصرية القديمة . .

* قالوا إن المصريين القدماء منذ بداية عصر الأسرة الثامنة عشرة [حوالى ١٥٧٠ ق م] ، وبعد تجربة طرد المحتلين الهكسوس من بلادهم ، أنشأوا إدارة عسكرية دائمة ، وكونوا جيشاً عاملاً كبيرا ومنظما ومزوداً بالعجلات الحربية التى تجرها الخيول ، ووضعوا برنامجاً مستديماً للتجنيد والتدريب العسكرى ، ونظاماً لمنح الجنود المحنكين أراض زراعية فى نطاق البلاد والأقاليم التى يقيمون فيها ، وكونوا فيالق ووحدات عسكرية مختلفة من الفرسان والمشاة والرماة مستعدة للزحف والقتال فى كل وقت ، ولا يسرح جنودها بعد انتهاء المعارك الحربية ، بل يظل هؤلاء الجنود والضباط فى معسكراتهم يواصلون التدريب طوال فترات السلم .

أعظم جيوش العالم القديم

قال بعض المؤرخين القدامى ، وبعض المؤرخين وعلماء المصريات فى بداية القرن التاسع عشر ، وقبل أن يرسخ علم المصريات وتتضح أبعاده بعد فك رموز الكتابة الهيروجليفية ، إن المصريين القدماء كانوا شعباً مسالماً عزوفاً عن الحرب وغير ميال إليها . . وتدفعه إلى ذلك الموقف عدة أسباب ، منها وفرة الخيرات فى البلاد من ناحية ، وطبيعة موقع مصر الجغرافى من ناحية أخرى حيث تحميها الصحراء من الشرق ومن الغرب .

* ولكن هذا الزعم تبدد واتضح بطلانه بعد معرفة قراءة التاريخ الذى دونه المصريون القدماء منقوشا على الجدران أو مكتوباً على صفحات البردى ، وبعد أن تم اكتشاف العشرات ، بل المئات ، من الشواهد الأثرية التى تؤكد أن المصريين القدماء كانوا ينهضون للحرب دفاعاً عن أراضيهم ووحدة دولتهم . . ثم تطور هذا الدفاع تطوراً هائلاً بعد القضاء على الهكسوس وطردهم من البلاد ، وأصبحت الحاجة ملحة لتكوين جيش مستديم مسلح بأحدث ما عرفه العالم القديم من أنواع الأسلحة والعدة والعتاد ، حتى يكون رادعاً لأى شعب أجنبى أو أية جماعة أجنبية تفكر فى غزو مصر أو الاعتداء على حدودها .

* وإذا كان من المسلم به الآن لدى كثير من المؤرخين وعلماء المصريات المحدثين أن فى مصر القديمة بدأ كل معلم من معالم الحضارة الانسانية ، وأن المصريين القدماء هم الذين وضعوا أسس الكتابة وأسس العلوم الطبيعية والطب ، وأسس الفن والأدب والدين ومبادىء الأخلاق والسلوك الانسانى القويم ، وأسس التنظيم الاجتماعى

والسياسى والاقتصادى للدولة ، فإن علماء كثيرين أقروا الآن بأن المصريين القدماء هم أول الذين ابتدعوا مبادىء وقواعد وأسس علم « الاستراتيجية » وعلم « التكتيك » وفنون الحرب وتنظيم الجيوش الكبرى ، ووضعوا خطط المعارك الحربية التى مازالت حتى الآن محل دراسة بأكاديميات الحرب الحديثة فى مختلف أنحاء العالم ، بل والتى أعاد تطبيقها ـ أو استرشد بها واستوحاها ـ عتاة القادة العسكريين المحدثين ، مثل الخطة التى استوحاها الفيلد مارشال لورد اللنبى فى الحرب العالمية الأولى [١٩١٤ ـ ١٩١٨] . . والخطة التى استرشد بها الفيلد مارشال مونتجومرى فى الحرب العالمية الثانية [١٩٣٩ ـ ١٩٤٥] .

* ومنذ بداية عصر الأسرة الثامنة عشرة [عام ١٥٧٠ ق م] وبالتالى بداية عصر «الدولة الحديثة » فى مصر ، تميز نظام الحكم بقدرة إدارية فذة اكتسبها قطعاً من تراكم خبرات تاريخ طويل فى تنظيم وادارة شئون الحكم فى كل من عصرى الدولتين القديمة والوسطى فى التاريخ المصرى القديم . وكانت هذه القدرة الفائقة على الإدارة وراء فكرة تكوين جيش يعتبره المؤرخون المحدثون من أعظم جيوش العالم القديم وأكثرها قوة وتنظيما .

* وتقول « موسوعة كمبردج فى التاريخ القديم » عن هذا الجيش : « كان جيشاً وطنيا هائل الحجم ، يتألف معظمه من جنود محترفين وجنود احتياطيين ، يقودونهم ضباط محترفون مدربون على أعلى مستوى من التدريب الحربى ، ويؤدون وظائفهم وواجباتهم الحربية فى إدارة الفرق والفيالق والأسلحة المنوطة بهم قيادتها بشكل منظم طبقا لقواعد عسكرية صارمة ، كما لو كانوا حلقات مترابطة فى سلسلة القيادة العامة لهذا الجيش » .

عسكرة مصر والمصريين

فى أعقاب الفرحة العارمة التى سادت فى كل أنحاء الديار المصرية بعد الانتصارات الحاسمة التى حققها الجيش الشعبى المصرى فى طرد الهكسوس وتحرير البلاد من الاحتلال ، هبت على شعب مصر عاصفة فكرية دفعته إلى التفكير فى أهمية الجيش لتحقيق أمن الشعب واستقراره وازدهار أحواله .

* كذلك فقد اعتنق نظام الحكم الجديد منذ بداية عصر الأسرة الثامنة عشرة [عام ١٥٧٠ ق م] مبدأ توجيه معظم موارد الدولة لانشاء وتنظيم الجيش ، والتصعيد المستمر فى إضفاء الطابع الحربى والعسكرى على المجتمع المصرى ، باعتبار أن هذا الاتجاه قد أصبح ضرورة حتمية لمواجهة الأخطار التى كانت تهدد مصر من ناحيتى الشرق والشمال بظهور دول ودويلات و إمارات وليدة ذات طموحات عسكرية ومطامع اقتصادية ورغبات فى فرض نفوذها على المناطق المتاخمة لها .

* وقد أغدقت الدولة على كل من كان ينضم إلى الجيش من الجنود والضباط ، فأصبح الانضمام إلى هذا الجيش هدفاً ساميا يسعى إليه الشباب المصريون لكى يحظوا بشرف الجندية ، ويتمتعوا بالمزايا العقارية والعينية التى كانت تمنحها الدولة للجنود المحترفين من أراض زراعية وحصص من الحبوب والخضراوات واللحوم والأسماك التى كانت تكفى احتياجات من يعولونه من أفراد أسراتهم وعائلاتهم حسب الأحوال . كما فتحت الدولة أمام الجنود فرص الترقى لرتب الضباط .

* كما أن شباب الطبقة الوسطى والأسرات الثرية أصبحوا يطمعون أيضا فى الانضامام إلى الخدمة العسكرية والانخراط فى سلك الجندية والاشتراك فى العمليات الحربية تحت قيادة الملك ، وذلك بعد تأهيلهم وتدريبهم فى « المدرسة الحربية » التى

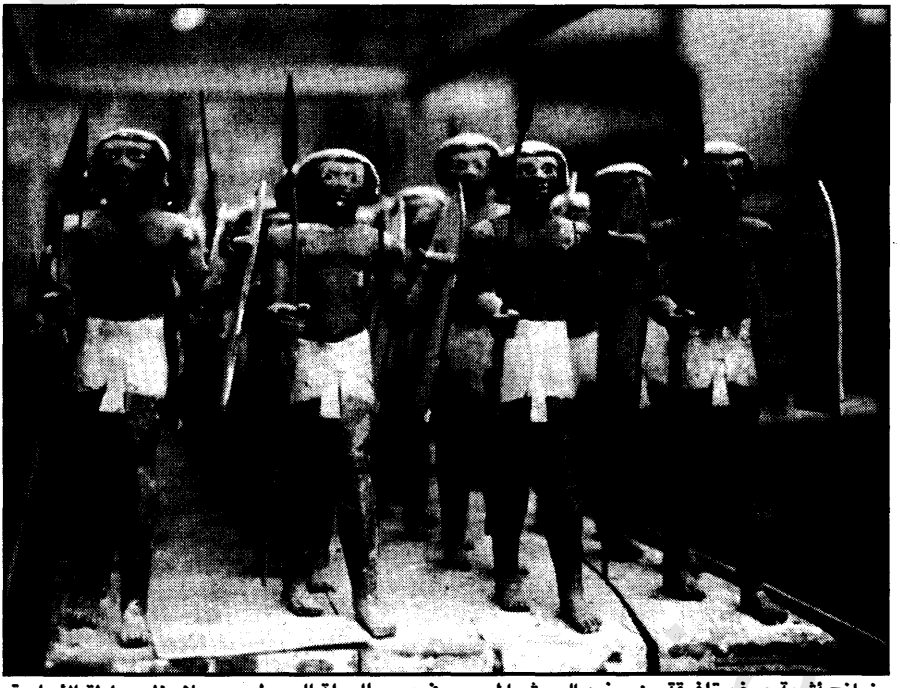

نماذج أثرية صغيرةلفرقة من جنود الجيش المصرى فى عصر الدولة الوسطى .. ويلاحظ بساطة الأسلحة التى كانوا يستعملونها قبل أن تتطور هذه الأسلحة فى عصر الامبراطورية .

العجلة الحربية المصرية الخفيفة الحركة التى كان يستعملها الجيش المصرى والتى تفوقت على العجلات الحربية الثقيلة الحركة التى كان يستعملها جيش الحيثيين [العجلة المصرية يركبها اثنان من المحاربين وعجلات الحيثيين يركبها ثلاثة محاربين] .

انشاتها الدولة فى مدينة « منف » [ميت رهينه والبدرشين حاليا] . وكان انضمام هؤلاء الشباب للقوات المسلحة يتيح لهم الحصول على الانعامات الملكية وألقاب التشريف والمراكز الرفيعة فى إدارة الدولة .

* وكان النظام التعليمى فى تلك المدرسة الحربية يؤهل هؤلاء الشباب للقيام بقيادة وإدارة الكتائب والسرايا والفيالق فى أسلحة الجيش المختلفة من مشاة وفرسان ومركبات حربية وانتاج السلاح ومتطلبات المجهود الحربى الأخرى ، بالإضافة إلى إدارة شئون التجنيد والسجلات العسكرية ، كما يتيح لهم التزود بدراسة العلوم المختلفة التى ترفع مستواهم الفكرى وثقافتهم العامة .

* وكان من المفروض على جميع الأمراء من أبناء الملك الانضمام إلى تلك المدرسة للتدريب المشترك مع الشباب الآخرين سواء بسواء لتأهيلهم لقيادة فرق الجيش . وكان الأمير الأكبر ـ ولى العهد الشرعى ـ يمنح بعد تخرجه لقب « القائد العام للجيش » بالرغم من أن معظم المعارك الحربية كانت تتم عادة تحت قيادة الملك بنفسه ، والذى كان يعتبر فى جميع الأحوال « القائد الأعلى للجيش » .

* وقد فرضت هذه الاستراتيجية الجديدة على نظام الحكم المصرى أن تستمر الدولة فى إعداد الجيوش وتجهيزها بكل ما يلزمها من عدة وسلاح وتموين ، الأمر الذى كان يتطلب توجيه معظم أنشطة الدولة فى حالة شبه مستمرة من التعبئة والاستنفار العام ، حتى تتحقق حالة التأهب العسكرى والاستعداد الفورى لتنفيذ السياسة الجديدة التى انتهجها نظام الحكم المصرى والقائمة على فلسفة أن « الهجوم هو خير وسيلة للدفاع » وأن السيطرة على تلك الدول والدويلات والإمارات الناشئة فى مناطق الشرق والشمال الشرقى هى التى تضمن لمصر أمنها وسلامتها . وهكذا انطلقت الجيوش المصرية إلى خارج الحدود لتؤسس أول امبراطورية كبرى عرفها تاريخ الانسان على كوكب الأرض .

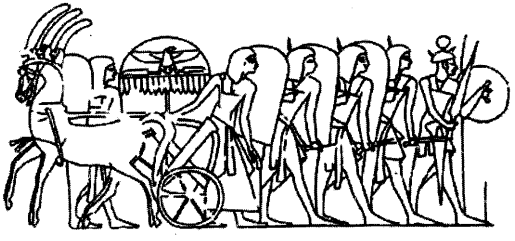

الجيش المصرى .. وتأمين الحدود المصرية

لم تكن الدوافع التى حفزت مصر للخروج بجيوشها إلى خارج الحدود تقصد الغزو والسيطرة وممارسة أعمال السلب والنهب ضد المناطق المتاخمة للحدود المصرية وضد الشعوب التى تسكن تلك المناطق ، بل كانت هناك دوافع منطقية نبعت كلها من تلك التجربة المريرة التى حلت بمصر حين تعرضت للاحتلال الأجنبى لأول مرة منذ بداية تاريخها المجيد . وكان على رأس تلك الدوافع تحقيق الأمن والسلام للشعب المصرى داخل حدوده ، والتكاتف بين الحكومة والشعب لمنع أية دولة أو دويلة أو إمارة خارج الحدود المصرية من التفكير أو الإقدام على تخطى تلك الحدود أو الدخول إلى الأراضى المصرية .

* كذلك فقد كان من الواجب الأول تأديب الدول والشعوب التى تحالفت مع الهكسوس ضد المصالح المصرية ، خصوصاً دولة « كوش » التى تكونت من القبائل النوبية ، بالاضافة إلى قبائل الليبيين بالصحراء الغربية ، لذلك فقد كانت أولى العمليات الحربية للجيش المصرى الحديث الذى تم تكوينه وتجهيزه فى بداية عصر الأسرة الثامنة عشرة [١٥٧٠ ق م] التوجه مباشرة إلى بلاد النوبة وفرض النفوذ المصرى على تلك القبائل حتى منطقة الشلال الرابع ، ثم التوجه غرباً لإبعاد القبائل الليبية إلى داخل الصحراء ومنعها من الاقتراب من مناطق غرب الدلتا وغرب الفيوم ومناطق مصر الوسطى .

* وما أن انتهت الجيوش المصرية من إخضاع النوبة وليبيا ، حتى اتجهت أنظار قادتها نحو مناطق شرق البحر المتوسط التى كانت المصدر الحقيقى للأخطار التى كانت تهدد مصر ، والتى وفدت عبرها جحافل الهكسوس الذين فرضوا سيطرتهم على مصر

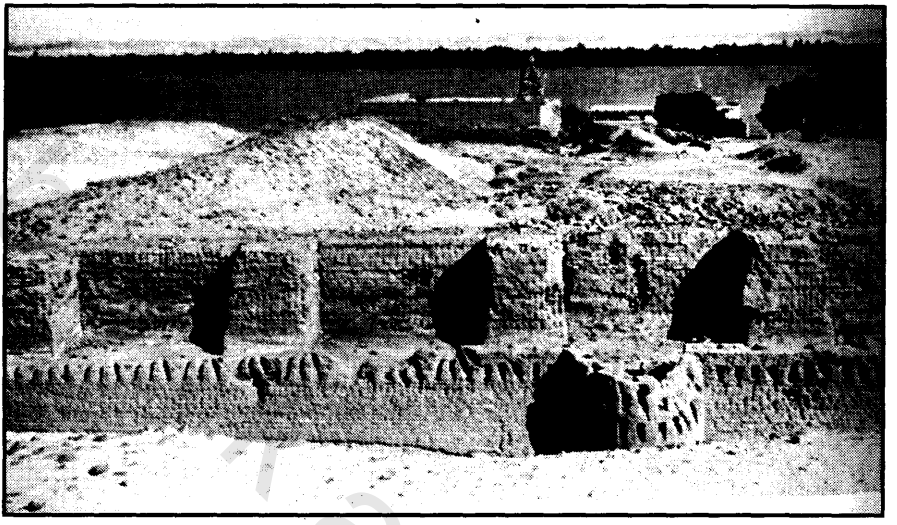

بقايا آثار قلعة مصرية بنيت فى منطقة « بوهن » بالقرب من الجندل الثانى لحماية الحدود الجنوبية لمصر .

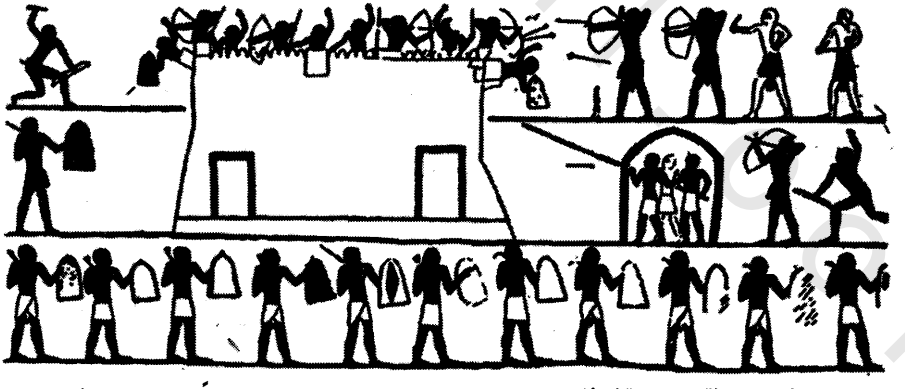

رسم توضيحى منقول عن نقش أثرى يصور الجنود المصريين يهاجمون حصناً من حصون الأعداء .

لأكثر من مائة وخمسين عاماً ، والتى كانت تنطلق منها قبائل البدو الساميين الذين كانوا يغيرون على مناطق شرق الدلتا بين حين وآخر لممارسة أعمال السلب والنهب .

* وكانت مصر تدرك تماماً أن مناطق شرق البحر المتوسط كثيرة الجبال والتلال والوديان ، وتدرك أيضا أن هذه الطبيعة الجغرافية لتلك المناطق لم تسمح بجمع كلمة أهلها وسكانها لتكوين وطن موحد يجمع شملهم فى دولة أو وحدة إدارية واحدة ، بل كانت تسكنها مجموعات متفرقة من القبائل لم يكن لديها أدنى قدر من التضافر أو الاتحاد أو التضامن ، بل كانت منقسمة على بعضها فى شكل إمارات صغيرة يحكم كلاً منها أمير يتخذ مقر حكمه فى مدينة تحيط بها المراعى والحقول والقرى الصغيرة . وقد اعتادت هذه الإمارات على أسلوب من الحياة يقوم على التنازع والشقاق والعدوان المستمر لنهب الأمتعة والمواشى وضم أراضى الإمارات الضعيفة . . وقد يؤدى هذا العدوان إلى نشوء مملكة صغيرة تسيطر على عدة إمارات وغالبا ما تؤدى الظروف السائدة فى تلك المناطق إلى تفكك مثل تلك الممالك الصغيرة وزوالها فى فترة وجيزة ، وذلك بسبب الثورات والاضطرابات والقلاقل التى كانت تنشب بين حين وآخر .

* أدركت مصر كل هذه الظروف السياسية التى كانت تعيشها تلك المناطق الشاسعة بشرق البحر المتوسط ، ووضعت فى اعتبارها ضرورة فرض السيطرة المصرية على كل تلك المناطق ، وتأسيس الامبراطورية الممتدة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وهى الحلم الذى حاول تحقيقه من قبل بعض ملوك الدولة الوسطى فى عصر الأسرة الثانية عشرة ، والذى تحقق فعلا فى الدولة الحديثة على أيدى الملوك المحاربين الشجعان المنتمين إلى الأسرة الثامنة عشرة .

تداول السلطة بين حزب المثقفين وحزب العسكريين

لم تخرج الجيوش المصرية من حدود مصر لتقهر الشعوب الأجنبية وتذلها ، أو لتباشر أعمال السلب والنهب ضد الشعوب المقهورة ، بل كان القصد الأول هو حماية مصر وتوفير الأمن والأمان لشعبها ، ولتحمى هذا الشعب من غارات المغيرين وتهديد الطامعين . وكان القصد الثانى قصداً نبيلاً هو نشر الحضارة المصرية فى البلاد التى يتم فتحها وتحقيق نوع من مزج الحضارة المصرية الراقية بالجوانب الحضارية الجيدة فى حضارات الدول والشعوب المجاورة .

* وتدل الشواهد التاريخية على أن توفير الأمن الذى حققه الملوك الأوائل من الأسرة الثامنة عشرة [١٥٧٠ ق م وما بعدها] قد أدى إلى زيادة الانتاج الزراعى والصناعى فى كافة الأقاليم المصرية ، وأدى ذلك بالتالى إلى تحقيق فائض من الانتاج يمكن تصديره إلى الدول المجاورة فى مقابل استيراد السلع التى تحتاجها مصر من انتاج تلك الدول .

* وهناك العديد من الشواهد الأثرية التى تدل على خروج الجيوش المصرية فى عهد الملوك الأوائل من الأسرة الثامنة عشرة لفرض السيطرة المصرية على النوبة العليا والمناطق الليبية وبعض المناطق الواقعة فى قارة آسيا شرق البحر المتوسط . غير أن التوسعات العسكرية التى أسست الامبراطورية المصرية لم تكتمل فى شكلها النهائى إلا فى عهد الملك المحارب العظيم « تحوتمس الثالث » على ما سوف نرى .

* وقد سجل المؤرخون القدامى والمحدثون كثيراً من أحوال الدولة وأحوال الشعب المصرى فى خلال تلك الفترة التى سبقت قيام تحوتمس الثالث بفتوحاته العسكرية ، حيث قالوا بظهور تيارين حزبيين كانا يتنافسان فى فرض مبادئهما على نظام الحكم فى

مصر . . التيار الأول هو « حزب المثقفين ورجال الدولة ورجال الدين » . . والتيار الثانمى هو « حزب العسكريين » الذى كان يتألف من كبار ضباط الجيش وقادة الفيالق العسكرية ومن يساندهم من رجال الدولة فى فرض خططهم بالقيام بحملات حربية لتوسيع مناطق النفوذ المصرى فى كل من آسيا وأفريقيا .

* وكان من الواضح أن التيار الأول قد حقق بعض النجاح فى فرض مبادئه أثناء حكم الملكة « حتشبسوت » حيث كان يدعو إلى تدعيم علاقات مصر بالدول الأخرى على أساس من الصداقة والمبادلات التجارية ، ولعل أكبر دليل على ذلك هو إعداد وتدبير الحملة المصرية إلى بلاد « بونت » لتنقل إلى تلك البلاد المنتجات المصرية ، ولتحضر منها ما تحتاجه مصر من الأخشاب الثمينة كخشب الأبنوس وأشجار البخور وجلود النمور والحيوانات الحية الغريبة التى لا تتوافر فى البيئة المصرية كالزراف والنسانيس وغير ذلك من المنتجات التى كانت تتميز بها بلاد بونت التى يقول بعض المؤرخين إنها كانت تشمل الصومال وجنوب بلاد اليمن وراء باب المندب بالبحر الأحمر.

* وتدل الشواهد التاريخية والأثرية على أن « حزب المثقفين ورجال الدولة والدين » لم ينفرد بفرض مبادئه على نظام الحكم المصرى فى تلك الفترة ، بل كانت هناك الكثير من الضغوط التى كان يمارسها « حزب العسكريين » والتى كان يسمح بها نظام الحكم لترضيته ، ومنها مثلا إطلاق اسم « مشع » ومعناه « الحملة » على البعثة البحرية التى توجهت إلى بلاد بونت رغم انها لم تكن حملة عسكرية بالمعايير الحربية المعروفة .

* وقد نجح تيار « حزب المثقفين » فى إقامة العديد من الأعمال المدنية والمنشآت العمرانية العظمى مثل إقامة معبد « حتشبسوت » بالدير البحرى بغرب الأقصر ، والتوسعات الهائلة بمعابد الكرنك ، وإقامة المسلات الشاهقة ، وبناء السفن النهرية والبحرية الضخمة ، والتوسع فى مجال التعليم المدنى والعسكرى ، كما تميز هذا التيار بموقف حضارى رائع وهو قبول ان تكون على رأس الدولة امرأة قوية الشخصية وشديدة المراس ويخضع الجميع لأوامرها ، وهى « الملكة حتشبسوت » . وهذا فى حد ذاته كان أمراً نادر الحدوث فى تاريخ مصر القديم منه والحديث .

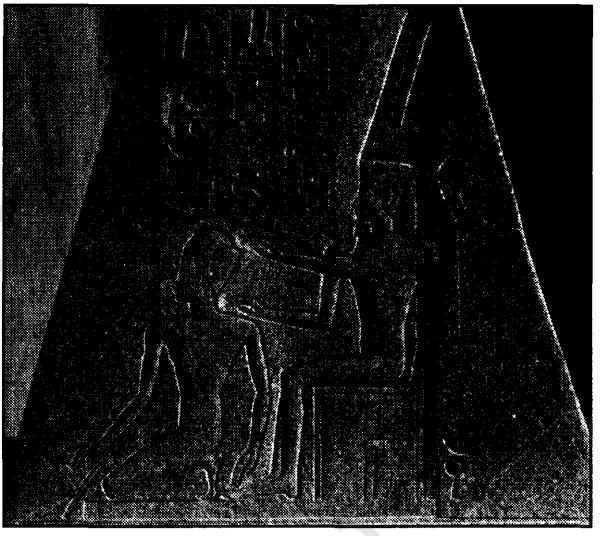

نقش يصور الملكة حتشبسوت بملابس الرجال وعلى رأسها التاج الملكى الحربى راكعة أمام تمثال الإله أمون رع

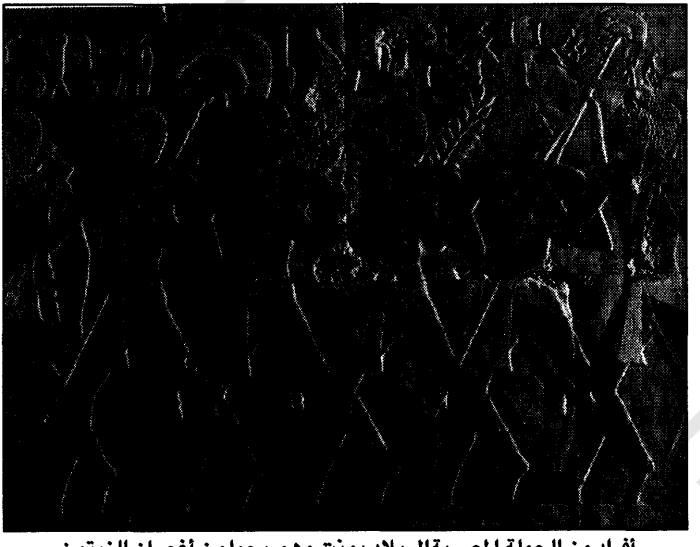

أفراد من الحملة المصرية إلى بلاد بونت وهم يحملون أغصان الزيتون

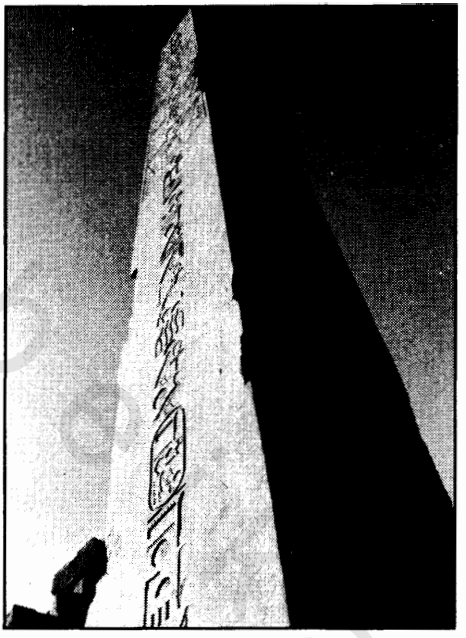

إحدى المسلات التى أقامتها
الملكة حتشبسوت

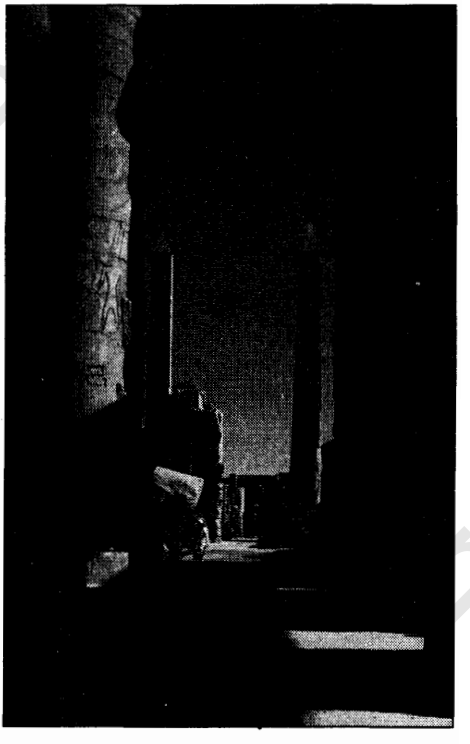

مسلتان أقامتهما الملكة
حتشبسوت بالكرنك تمجيداً
لذكراها ولذكرى أبيها
تحوتمس الأول

الامبراطورية المصرية ..
فى الشرق والغرب والجنوب والشمال

لا يعرف المؤرخون حتى الآن كيف انتهى عهد الملكة حتشبسوت زعيمة حزب المثقفين المصريين . . هل ماتت ميتة طبيعية أم كانت ضحية لثورة أو انقلاب قام به حزب العسكريين الذين كانوا يناصرون « تحوتمس الثالث » ليصبح فرعونا على مصر باعتباره صاحب الحق الشرعى فى الجلوس على العرش .

* وما أن انفرد هذا الملك العظيم بحكم مصر حتى تجلت مواهبه الحربية التى جعلت المؤرخين يصفونه بأنه رائد العبقرية العسكرية فى تاريخ العالم القديم ، وأطلقوا عليه لقب « نابليون الشرق القديم » . وتدل الشواهد التاريخية والأثرية على انه قام فى فترة حكمه بست عشرة حملة عسكرية كان من نتائجها فرض السيادة المصرية على امبراطورية شاسعة الأرجاء تمتد من شرق آسيا الصغرى إلى بلاد ما بين النهرين وجميع مناطق شرق البحر المتوسط التى تشمل حاليا كل سوريا ولبنان والأردن وفلسطين واسرائيل . . وتمتد غرباً داخل الصحراء الليبية ، وجنوباً حتى منطقة الشلال الرابع بالسودان .

* وقد استكانت جميع تلك البلدان إلى حكم هذا الملك العظيم ، واقتنع حكامها وأمراؤها فى النهاية بأنه لا طائل من إثارة الثورات أو إعلان العصيان ضد الحكم المصرى لبلادهم . ويقول المؤرخ « ويجول » ـ وهو أحد المؤرخين الذين توسعوا فى دراسة عصر الامبراطورية المصرية فى التاريخ القديم ـ إن المصريين كانوا أعظم شعوب العالم القديم رحمة وانسانية ، فقد كان « تحوتمس الثالث » يعفو عن أمراء وقادة جيوش العدو ،

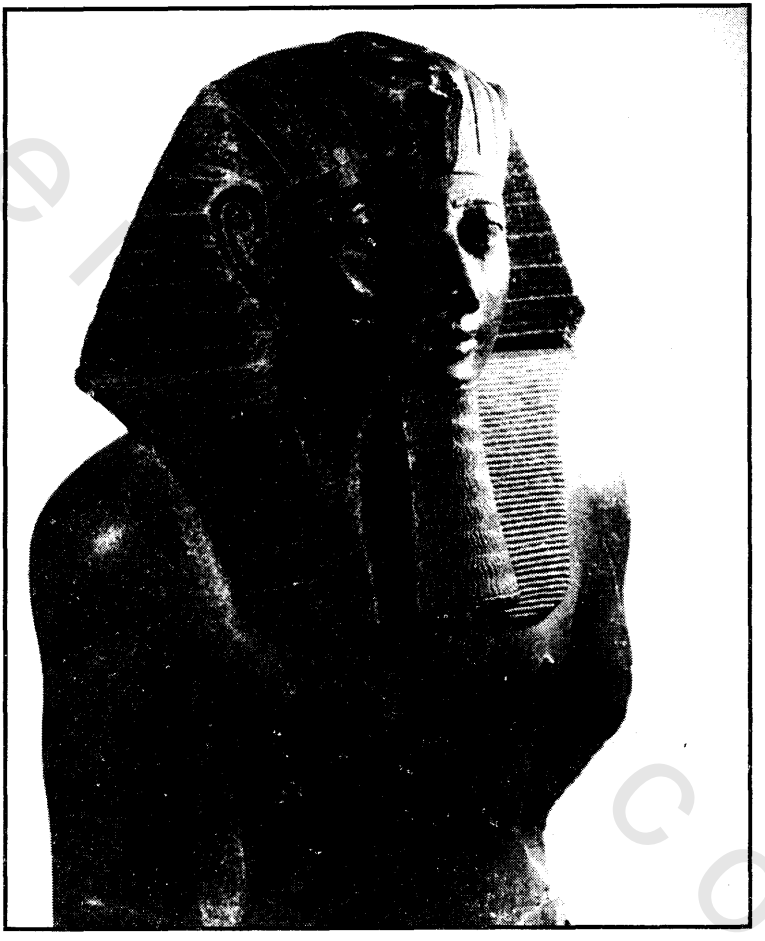

عبقرى العسكرية المصرية الملك تحوتمس الثالث

ويعيد تنصيبهم على الإمارات التى كانوا يحكمونها بشرط أن يرسل كل أمير ابنه الأكبر ـ المتوقع أن يرث منصبه ـ إلى مصر ، ليس كرهينة وإنما لكى يتعلم فى المدارس المصرية وليتشبع بأسس وسبل الحضارة المصرية . [وهذه الطريقة اتبعتها الامبراطورية البريطانية فى القرنين التاسع عشر والعشرين حيث كانت توفد أبناء الحكام وأبناء الطبقات العليا فى كل من الهند ومصر وبقية المستعمرات البريطانية الأخرى لكى يتعلموا فى المدارس والكليات والجامعات البريطانية] .

* ومن المعروف فى التاريخ العسكرى أن عبقرى العسكرية المصرية « تحوتمس الثالث » هو أول من وضع فكرة تقسيم الجيش إلى قلب وجناحين . . وهو أول من ابتكر فكرة تكوين مجلس أركان حرب من كبار ضباط الجيش . . وهو أول من ابتدع فكرة إصدار بيانات حربية يومية تشرح تفاصيل سير المعارك التى خاضها ضد اعدائه . ولحسن الحظ فقد تم العثور على نقوش لتلك البيانات مكتوبة على بعض جدران الكرنك تحكى لنا يوميات موقعة « مجدو » وهى أول موقعة حربية كبرى خاضها تحوتمس الثالث فى أول حملاته العسكرية فى قارة آسيا .

* ويقول المؤرخ « نلسون » الذى درس هذه البيانات دراسة وافية إن الجيش المصرى تحرك من مصر فى يوم يوافق يوم ١٩ ابريل عام ١٤٧٩ ق م . واخترق الصحراء جنوب فلسطين ووصل إلى منطقة غزة بعد ١٠ أيام . وفى بلدة « يحم » بشمال غزة عسكرت القوات المصرية ، وأرسل الملك فرقة استطلاعية لاستطلاع مواقع العدو ، وهو ملك قادش الذى كان يتحكم فى عدة إمارات صغيرة ، وجاءت أخبار هذا الاستطلاع بأن ملك قادش نصب خيام جيشه فى منطقة « مجدو » وضم إليه كل أمراء الأقاليم الذين كانوا يدينون بالولاء والخضوع لمصر ، وكان هذا الجيش مكونا من عدد هائل من المشاة والفرسان . . وعقد « تحوتمس الثالث » مجلس أركان حربه لوضع خطة الهجوم . ورأى تحوتمس أن يمر الجيش عبر ممر « عرونا » وهو ممر ضيق ليفاجىء جيش العدو من حيث لا يحتسب . إلا أن كبار الضباط كانوا يرون صعوبة اختراق هذا الممر ، ولكنهم رضخوا لرأى القائد فى نهاية الأمر ، ونجحت الفكرة العبقرية ، ودخل الجيش المعركة الحاسمة مفاجئاً جيش الاعداء وحقق انتصاراً ساحقا . . واستسلم أمراء وقادة جيش العدو

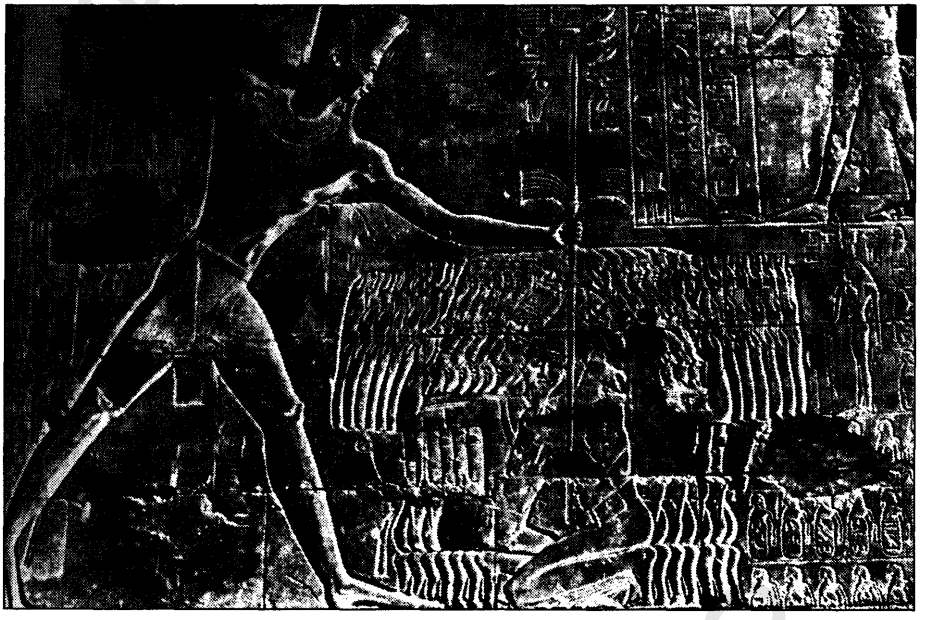

نقش رمزى للمحارب العظيم « تحوتمس الثالث » وهو يمسك بأسراه من الأعداء الآسيويين

وألقوا سلاحهم « طالبين النفس لأنوفهم » ـ كما يقول النص المصرى ـ وقالوا للفرعون : « هيىء لنا الفرصة لنسلم لجلالتك الغرامة » .

* ويبدو أن الضابط الانجليزى « لورنس » المعروف بلورنس العرب ـ وكان على دراية بالتاريخ المصرى القديم ـ هو الذى أوحى للفيلد مارشال لورد اللنبى بعبور الجيش البريطانى عبر ممر « عرونا » الضيق ليفاجىء الجيش العثمانى من حيث لا يحتسب وذلك فى خلال معارك الحرب العالمية الأولى [١٩١٤ ـ ١٩١٨] وهى نفس الفكرة التى وضعها عبقرى العسكرية المصرية تحوتمس الثالث منذ ما يقرب من ٣٤ قرنا سابقة على هذا التاريخ .

obeikandl.com

رائد العبقرية العسكرية فى تاريخ العالم

لم تقتصر العبقرية العسكرية التى تميز بها « تحوتمس الثالث » على حد ابتداع فكرة تقسيم الجيش إلى قلب وجناحين ، أو ابتداع فكرة تكوين مجلس أركان حرب من كبار الضباط و أو ابتداع فكرة إصدار بيانات حربية يومية للعمليات التى تتم أثناء المعارك ، أو ابتداع فكرة مرور الجيش عبر الممرات الضيقة لمفاجأة جيش العدو الذى لا يمكن أن يتوقع إمكانية اختراق تلك الممرات الصعبة . . وإنما ابتدع أيضا فكرة عبقرية أخرى تتمثل فى نقل السفن الحربية نقلاً برياً .

* وقد انبثقت تلك الفكرة فى رأس هذا العبقرى العسكرى الفذ عندما قرر فتح المناطق الشمالية الغربية بالعراق [بلاد ما بين النهرين] وضمها إلى الامبراطورية المصرية . . فقد كانت هناك عقبة كأداء تتمثل فى كيفية عبور الجيش المصرى حتى يصل للشاطىء الآخر من نهر الفرات . . وكان من الضرورى وجود عدد كبير من القوارب والسفن لنقل جنود المشاة والفرسان والخيول والعربات الحربية وكافة الأسلحة والمؤن التى يحتاجها الجيش ، من الشاطىء الغربى إلى الشاطىء الشرقى لنهر الفرات . . لذلك فقد أمر « تحوتمس الثالث » بصنع هذه السفن والقوارب كأجزاء مفككة فى مدينة ببلوس [مدينة جبيل حاليا شمال بيروت] مستعينا بأخشاب غابات لبنان ، وبتصميم هندسى يجعل من السهل إعادة تركيب هذه الأجزاء المفككة وتكوين السفن والقوارب المطلوبة .

* وبالنظر إلى أن الطريق بين « ببلوس » بلبنان ومدينة « قرقميش » على الشاطىء الغربى لنهر الفرات طريق شاق وطويل ، وأغلبه « مدقات » غير ممهدة ، فقد ابتدع المهندسون العسكريون المصريون نوعاً من عربات النقل الثقيل تجرها الثيران ، أطلقوا

عليها اسم « ور ـ رت » ومعناه « العظيمة » وتصلح تماماً لحمل أجزاء السفن والقوارب والمعدات الحربية والسير بها فى تلك الطرق الوعرة . . وعندما تصل أجزاء السفن المفككة إلى شاطىء الفرات ، يعكف المهندسون والصناع المصريون المصاحبون للحملة العسكرية على تركيبها وتزويدها بما يلزمها من حبال ودفات ومجاديف حتى تصبح جاهزه للابحار فوق الماء . . وعندما اكتمل عدد السفن والقوارب المطلوبة بدأ هجوم الجيش المصرى على تلك المناطق العراقية وضمها إلى الامبراطورية المصرية التى أصبحت قوة لا تقهر ، ولا يمكن أن تعارضها أية دولة أو إمارة من دول وإمارات العالم القديم .

* وقد كتب بعض المحللين العسكريين المحدثين أن الفيلد مارشال مونتجومرى قد استوحى هذه الفكرة ونفذها فى أثناء معارك الحرب العالمية الثانية ، حيث نقل أجزاء السفن والقوارب الحربية المفككة المصنوعة فى فرنسا وانجلترا نقلاً برياً عبر الطرق البرية فى فرنسا ، وتم تركيبها على شاطىء نهر « الراين » حتى يتمكن من عبور قواته إلى الأراضى الألمانية .

* كذلك فقد تجلت عبقرية « تحوتمس الثالث » كقائد عسكرى فذ لم يعرف تاريخ العالم القديم قائداً مماثلاً قبله ، حين تم استيلاؤه على جميع موانى شرق البحر المتوسط وحولها إلى قواعد حربية بحرية تؤدى دور حلقة الوصل بين مصر وبقية مناطق الامبراطورية فى قارة آسيا ، وتنقل إليها فرق الجنود وكافة أنواع العتاد الحربى اللازمة للمعارك ، كما تنقل منها كافة أنواع الجزية العينية وغنائم الحرب حتى تصل إلى الموانى المصرية على البحر أو بداخل النيل حتى تصل إلى ميناء طيبة « الاقصر » بجنوب البلاد . . وبالاضافة إلى تلك القواعد الحربية البحرية قام تحوتمس بتشيد بعض القلاع الحربية داخل أراضى شرق البحر المتوسط ، أطلق عليها اسم « تحوتمس قاهر الأجانب » .

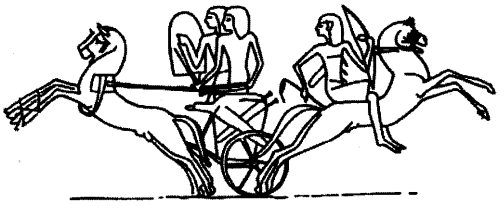

الامبراطورية المصرية وفكرة « الحكومة العالمية » .

يقول المؤرخ البريطانى الشهير « أرنولد توينبى » : إن الامبراطورية المصرية التى أسسها « تحوتمس الثالث » تعتبر صورة كاملة من أشكال « الحكومة العالمية » التى ظل يحلم بتحقيقها الفلاسفة والقادة العسكريون الكبار على مدى التاريخ الانسانى ، حيث كانت مصر خلال عصرها الامبراطورى تحاول أن تفرض حضارتها ولغتها وتنشر عقائدها ودياناتها وأساليب حياة شعبها فى ربوع الأرجاء الشاسعة التى فتحتها وضمتها الجيوش المصرية . كما حرصت مصر أيضا على عقد أواصر الصداقة والعلاقات السلمية مع الدول الوليدة التى ظهرت تباعاً فى تخوم الامبراطورية وخارج حدودها .

* وتدل الشواهد التاريخية والأثرية على أن أمراء وحكام الإمارات والدويلات التى فتحتها جيوش تحوتمس الثالث فى مناطق شرق البحر المتوسط ، قد آثروا الاحتماء بقوة مصر ووعدها لهم بحمايتهم من هجمات وأطماع تلك الدول الوليدة التى بدأت تنشأ وتتمركز فى المناطق المحيطة بالحدود الشرقية والشمالية للامبراطورية المصرية ، خصوصاً دولة « الحيثيين » التى بدأت تهدد بعض تلك الإمارات والدويلات وتثير الاضطرابات والقلاقل وتحرض بعض حكامها وأمرائها ضد مصر . وقد تم العثور على الكثير من الرسائل والخطابات التى كان يحملها رسل هؤلاء الأمراء والحكام يطلبون فيها من ملوك مصر الوفاء بالالتزام بحمايتهم الذى قرره ووعد به تحوتمس الثالث حين فتح بلادهم .

* وقد عكف مؤرخون كثيرون على ترجمة تلك الخطابات والرسائل ودراسة فحواها والموضوعات التى تضمنتها ، فتبين انها كانت تتكون من مجموعتين . المجموعة الأولى رسائل وخطابات أرسلها أمراء وحكام الإمارات والدويلات التى كانت داخلة فى نطاق

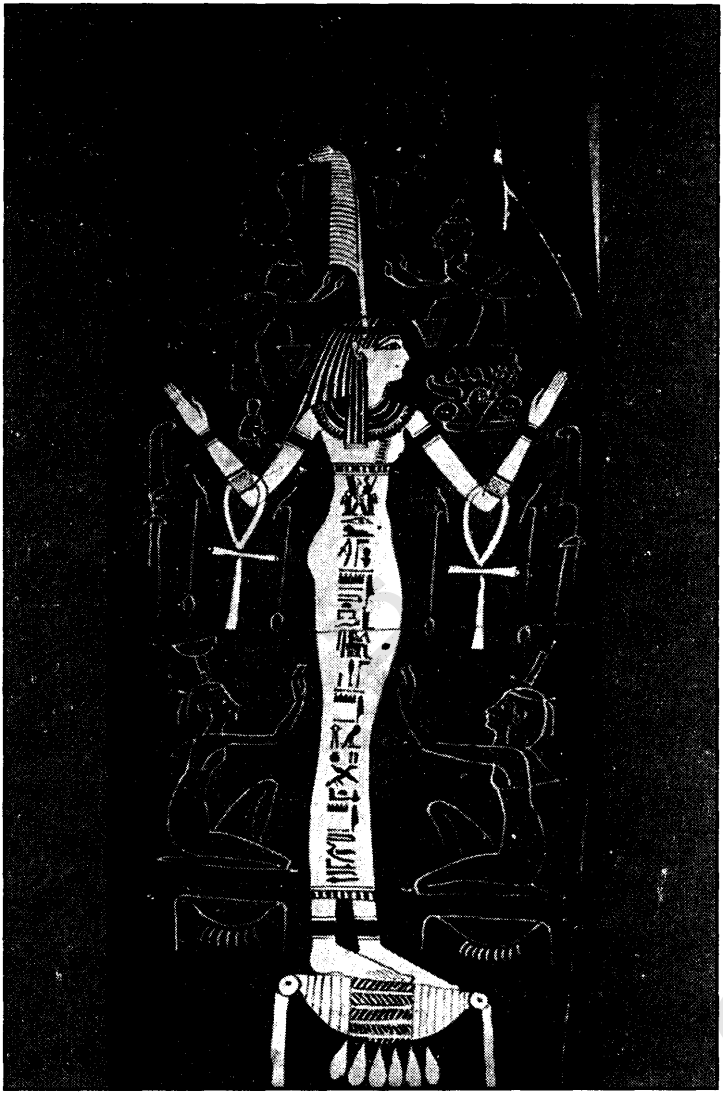

نقش تقليدى لـلإلهة « ماعت » رمز العـدالة والحق والصدق وهى تحمـل على ذراعيها علامتى « عنخ » التى ترمز إلى الحياة الأبدية وتضع ريشة النعام فى شعر رأسها ..وقد اتخذها المصريون شعارًا لنشرعدالتهم فى حكم الامبراطورية

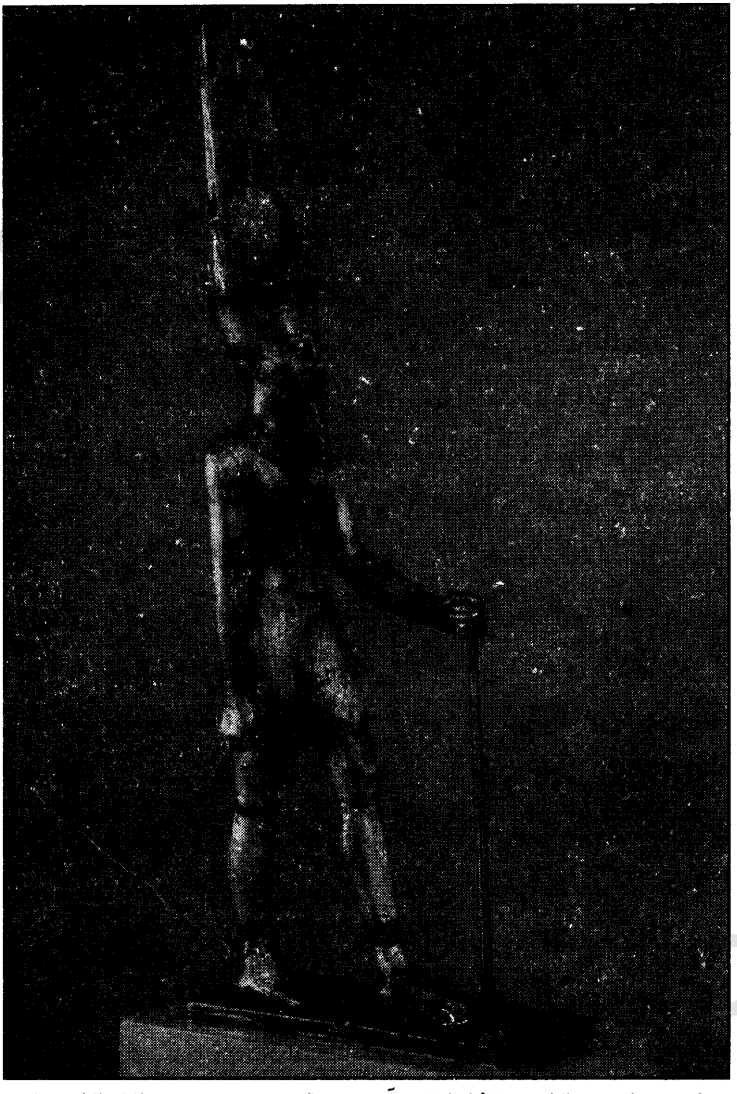

تمثال مصنوع من الذهب والفضة للإله آمون .. وقد اعتبره المصريون الإله الذى يبارك فتوحاتهم ويحقق النصر لجيوشهم

الامبراطورية المصرية وتخضع للحكم المصرى . . والمجموعة الثانية كانت الرسائل والخطابات التى أرسلها الملوك والأمراء الذين كانوا يحكمون الدول المستقلة المجاورة لحدود الامبراطورية المصرية والذين كانوا يحرصون فى أغلب الأحوال على مديد الصداقة إلى مصر وملوكها . وتدل هذه الرسائل بصفة عامة على وجود جو سياسى عام تسوده روح السلام وعلاقات الود والمهادنة . ومن الطريف أن نذكر هنا أن معظم هذه الرسائل التى كان يرسلها الملوك والحكام الأجانب إلى ملوك مصر كانت تستهل بالدعاء للفرعون بطول الحياة وبكل عبارات المحبة والود وأمنيات الخير له شخصيا ولأهل بيته ولعظماء دولته ، بل والدعاء بالخير والمباركة لخيوله وعرباته وكل قطعة من أرض بلاده .

* وهناك الكثير من النقوش الأثرية التى وجدت على جدران المعابد وجدران مقابر الملوك والوزراء وكبار رجال الدولة فى عصر الامبراطورية تؤكد لنا بما لا يدع مجالاً للشك تدفق جميع أنواع الجزية وغنائم الحرب والهدايا على مصر ، سواء من الإمارات التى تم فتحها وضمها ، أم من الدول الوليدة الأخرى المجاورة لحدود الامبراطورية المصرية كدولة آشور التى لم تقع بينها وبين مصر فى ذلك العصر أية معارك أو اشتباكات حربية . فقد رأى ملك تلك الدولة أن يخطب ود مصر فأرسل رسله محملين بأنواع الهدايا والمجوهرات . . كذلك فقد تدفق على مصر آلاف من الأسرى وآلاف من العبيد غير المحاربين . . وآلاف من الخيول وآلاف من المواشى . . ومئات من العربات الحربية ، بالإضافة إلى سلع لا حصر لها من المصنوعات والمصوغات والحلى والمجوهرات .

* وهكذا بدأت مصر وبدأ المصريون يعيشون حياة ملؤها الترف والنعيم والانغماس فى الملذات . ويقول بعض المؤرخين ـ ومنهم الدكتور سليم حسن ـ إن هذا الثراء والترف الذى انغمس فيه المصريون كان من الأسباب التى أدت إلى الخطوات الأولى فى انحلال الأخلاق وفساد العناصر الطيبة فى البلاد ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى انحطاط أخلاقى وانحطاط عسكرى ، خصوصاً بعد أن اختلط الدم المصرى بالدم الأجنبى بسبب وفود آلاف من الأجنبيات الفاتنات إلى مصر ، فتلقفهن ثراة المصريين واتخذوهن كجوارى ومحظيات .

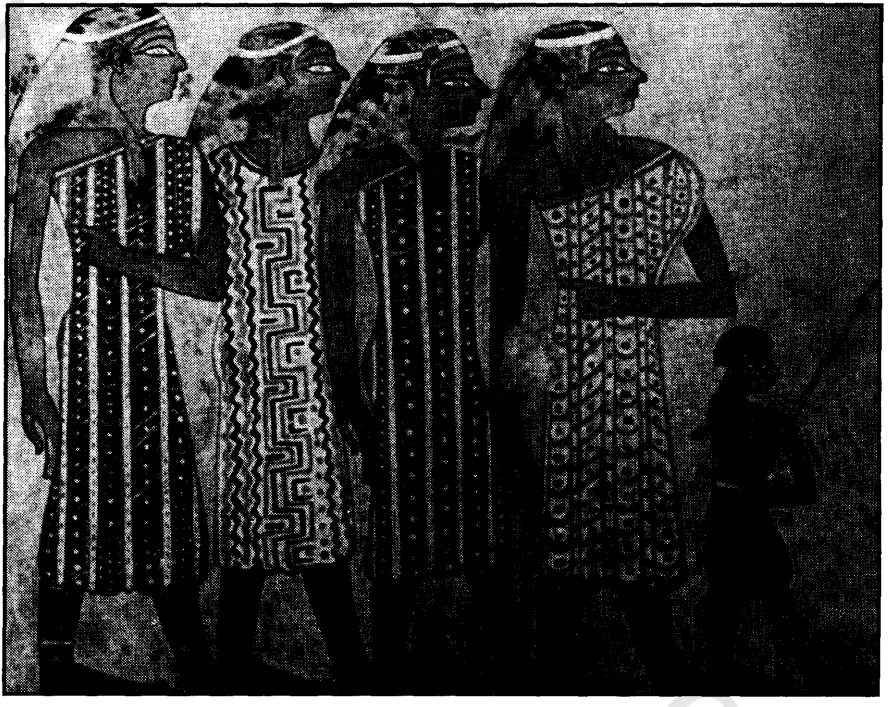

أفراد من القبائل الآسيوية الذين كانوا يحضرون إلى مصر ومعهم الهدايا والجزية

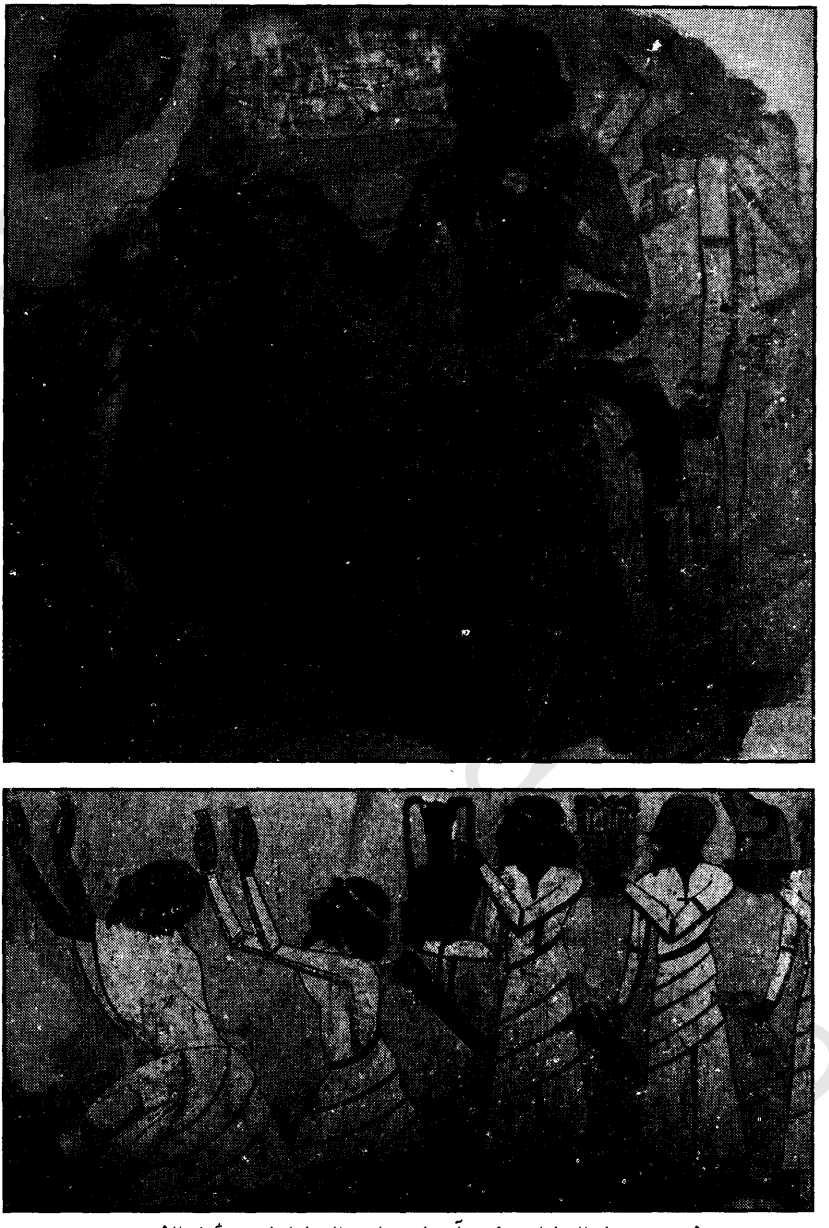

وفود من حكام الإمارات بغرب آسيا يحملون الهدايا راكعين أمام الفرعون

توطيد أركان الامبراطورية المصرية

لا شك فى أن حياة الترف والثراء الواسع الذى حققته مصر فى عصرها الامبراطورى كان نتيجة مباشرة للفتوحات الكبرى التى قام بها عبقرى العسكرية تحوتمس الثالث لتوسيع حدود امبراطوريته المترامية الأرجاء فى الشمال والجنوب وفى الشرق والغرب . وكانت العادة فى التاريخ القديم فرض « الجزية » على ما يتم غزوه من بلاد . . وهكذا تدفقت على مصر ثروات هائلة ، بالإضافة إلى ما كانت ترسله الدول المتاخمة لحدود الامبراطورية المصرية من هدايا طوعية إبتغاءً لعقد أواصر الصداقة مع مصر وحكامها .

* وتدل الشواهد التاريخية على أن بعض الإمارات والدويلات التى فتحها تحوتمس الثالث أعلنت حالة العصيان عندما بلغها خبر موته ، وامتنعت بالتالى عن دفع ما تقرر عليها من مقادير الجزية . وكانت مظاهر هذا العصيان فى أغلبها عبارة عن إثارة القلاقل والاضطرابات ومحاولات التنصل من الالتزامات المتفق عليها بين مصر وتلك الإمارات والدويلات ، وكذلك بسبب تحريض بعض الدول الوليدة المتاخمة لحدود الامبراطورية المصرية فى مناطق شرق البحر المتوسط .

* ولكن لحسن الحظ تولى عرش مصر وامبراطوريتها بعد موت تحوتمس الثالث ملوك عظام آخرون من نسله ، بدأوا بابنه الملك الرياضى امنحوتب الثانى الذى يدل تاريخه وآثاره على انه قد نهج نهج والده العظيم فى قيادة الجيوش واتباع الخطط والقواعد العسكرية الحربية التى ابتدعها . ولذلك فقد قام على الفور بقيادة الجيوش المصرية براً وبحراً واتجه إلى تلك الامارات والدويلات التى أعلنت عصيانها فى المناطق السورية وبلاد النهرين وأوقع بحكامها العصاة أشد العقاب . ومن الغريب ـ كما يذكر التاريخ

المحارب العظيم « أمنحوتب الثانى » ابن المحارب العظيم « تحوتمس الثالث »

obeikandl.com

ـ أن معظم هذه الامارات والدويلات قد خرجت عن بكرة أبيها بكل رجالها ونسائها وأطفالها لاستقبال الجيش المصرى بالموسيقى والطبول تعبيراً عن الولاء لمصر وحكامها الذين كانوا يتولون حمايتهم من أطماع تلك الدول الوليدة مثل الحيثيين والميتانيين والبابليين ، وهى دول كانت تسعى للسيطرة على الامارات والمناطق التابعة للامبراطورية المصرية فى شرق البحر المتوسط . ولذلك فلم يقم الجيش المصرى بقيادة امنحوتب الثانى بإيقاع أى أذى أو عقاب على شعوب تلك المناطق ، واقتصر الأمر على عزل وتأديب الأمراء والحكام الذين انساقوا وراء التحريض وأعلنوا التمرد والعصيان .

* وبعد أن أتم امنحوتب الثانى عمليات التأديب هذه قاد الجيش المصرى إلى مناطق أعالى نهر الفرات ، وعبر النهر وتوغل فى بلاد النهرين إلى مسافات أبعد مما وصل إليها والده ، وأقام هناك نصباً تذكارياً لتخليد ذكرى وصوله واخضاعه لتلك المناطق الجديدة . وتدل الشواهد الأثرية أيضا على ان أمراء وحكام دولة الميتانيين المتاخمة لتلك المناطق جاءوا إليه حاملين جزيتهم وهداياهم على ظهورهم طالبين أن يسمح لهم جلالته « بالبقاء أحياءً ليستنشقوا نسيم الحياة » كما يقول النص الأثرى .

* وفى مصر أقيمت الاحتفالات بعودة الجيش المصرى المنتصر ، وهلل الشعب تكريماً للملك العظيم الذى حقق لمصر الرخاء والثراء . وتدل الشواهد الأثرية المكتوبة على أن « الجيش العائد كان يتدفق كالسيل ويجر وراءه ما يزيد على خمسمائة أمير سورى أسرى ، ومائتين وأربعين من زوجاتهم ، ومائتين وعشرة من الخيول الجيدة ، وثلاثمائة من العربات الحربية كغنائم حرب ، وما يعادل ألفا وستمائة وستين رطلاً من الذهب ، وما يعادل مائة ألف رطل من النحاس » .

* وبعد أن انتهى امنحوتب الثانى من توطيد أركان الامبراطورية المصرية فى المناطق الآسيوية بشرق البحر المتوسط ، اتجه جنوباً إلى أعماق بلاد النوبة حيث كانت حدود الامبراطورية قد وصلت فى عهد والده إلى منطقة الشلال الرابع ، وذلك كشكل من أشكال استعراض القوة العسكرية للجيش المصرى حتى لا يجسر أحد من أمراء النوبة أو رؤساء القبائل على شق عصا الطاعة أو القيام بأى عصيان . . غير أن امنحوتب

الثانى توغل فى المناطق الأفريقية إلى ما بعد منطقة الشلال الرابع لفرض النفوذ المصرى على الطرق التجارية التى كانت تربط بلاد النوبة بأواسط أفريقيا وبالبلاد المتاخمة لها . وكذلك لمنع القبائل هناك من التمرد أو القيام بأية حركات عدائية ضد مصر ومناطق نفوذها .

نقش جدارى بمعبد الكرنك يصور الملك « أمنحوتب الثانى » فى عربته الحربية

رائد الدبلوماسية فى العالم القديم

استقرت الأحوال تماماً فى جميع أرجاء الامبراطورية المصرية طول حكم « أمنحوتب الثانى » إلى أن مات عام ١٤١٥ ق م . وتولى العرش ابنه «تحوتمس الرابع» فحدثت بعض القلاقل فى بعض إمارات المناطق السورية التابعة للامبراطورية المصرية بتحريض من حكام دولة الحيثيين ، الأمر الذى دفع تحوتمس الرابع إلى القيام بحملتين متتاليتين لإخماد تلك القلاقل فى مهدها ، وذلك بالرغم من انه لم يكن ميالاً بطبعه إلى قيادة الجيوش والقيام بحملات عسكرية ، كما اضطر أيضاً إلى تجهيز حملة اتجهت إلى بلاد النوبة لإخماد ثورة صغيرة قامت بها بعض القبائل .

* وقد اشتهر تحوتمس الرابع فى التاريخ المصرى القديم بانتهاج سياسة عقد المعاهدات الدبلوماسية والتحالفات السياسية . لذلك فقد وصفه المؤرخون بأنه رائد الدبلوماسية فى العالم القديم . ومن أشهر تلك المعاهدات الاتفاقية التى عقدها مع دولة الميتانيين لتنسيق عمليات الدفاع المشترك ضد أطماع دولة الحيثيين فى السيطرة على دولة الميتانيين نفسها والسيطرة على الإمارات والدويلات السورية . وكذلك المعاهدة السياسية التى عقدها مع دولة بابل لتنسيق العلاقات السلمية بينها وبين مصر . ومن الملاحظ أن هاتين الدولتين [الميتانية والبابلية] تقعان على الحدود الشمالية الشرقية للمناطق الآسيوية الداخلة فى نطاق ونفوذ الامبراطورية المصرية .

* وقد اشتهر تحوتمس الرابع أيضا بلوحة « الحلم » التى اكتشفها الدكتور سليم حسن عندما كان يقوم بحفائره فى منطقة « أبو الهول » بالجيزة ، فقد عثر على هذه اللوحة بين مخالب التمثال الضخم . وبدراسة النقوش المكتوبة عليها تبين انها تتضمن حكاية ذات طابع شخصى وطابع سياسى فى الوقت نفسه . وتقول الحكاية إن الأمير

«تحوتمس » كان يمارس رياضة الصيد فى الصحراء المجاورة لتمثال أبو الهول . وفى ساعة القيلولة رقد الأمير الصغير فى ظل التمثال ليستريح قليلا ، فأخذته سنة من النوم . . وإذا به يرى فى الحلم الإله « رع » متمثلاً فى تمثال ابو الهول « يتكلم بفمه كما يتكلم الأب مع ابنه قائلا له : تأمل يا بنى تحوتمس . . إنى والدك . . وسأمنحك ملك الأرض لتصبح رئيساً على الأحياء . . وستلبس التاجين الأبيض والأحمر . . وستكون الأرض ملكك فى طولها وعرضها . . انظر يا بنى . . إنى أشعر بألم فى كل أعضائى . . وغمرتنى الرمال وغطت جسمى . . فالتفت إلى لكى ألتفت إليك وأعطيك قلبى . . . . . »

* وفى تلك الفترة كان قد مر يزيد على على إثنى عشر قرنا على بناء ونحت تمثال أبو الهول فى عهد الملك خفرع [الأسرة الرابعة / الدولة القديمة] وقد تآكلت بعض أجزاء التمثال وطغت الرمال على جسمه وغطت المعابد التى كانت مقامة بجواره . وكان من نتيجة هذا الحلم الذى رآه الأمير تحوتمس فى منامه أن قام بإزالة الرمال عن جسم التمثال ورمم الأجزاء المتآكلة ورمم المعابد المقامة حوله ، وأقام سوراً حول منطقة التمثال لحمايته من زحف الرمال . . وقد كان هناك اعتقاد لدى كثير من المؤرخين وعلماء الآثار المصرية بأن هذا السور قد بنى فى العصر البطلمى [٣٢٣ - ٣١ ق م] ولكن الاكتشافات الحديثة أثبتت أن السور قد بنى فى عهد تحوتمس الرابع [١٤١٥ - ١٤٠٥ ق م] .

* ويقول بعض المؤرخين ـ ومنهم د . سليم حسن ـ فى تحليل مغزى تلك الحكاية المنقوشة على تلك اللوحة الأثرية إنها قصة ابتدعها وأذاعها تحوتمس الرابع لتأكيد وتوثيق حقه فى اعتلاء عرش مصر وامبراطوريتها فى ضوء احتمال أن يكون بعض اخوته من أبناء أبيه أمنحوتب الثانى أحق منه فى ولاية العرش ، فادعى هو بأن حقه فى العرش كان بناء على توصية ورعاية الإله « رع » المتمثل فى أبو الهول .

* كما أن لهذه القصة أيضا مغزى دينياً آخر وهو أن ملوك الأسرة الثامنة عشرة ـ وهى التى قامت تحت رعاية الإله آمون ـ بدأوا يلاحظون أن كهنة آمون قد أثروا ثراء فاحشاً بسبب الأوقاف والثروات والممتلكات العقارية والمنقولة التى تقع فى حيازة وتصرف

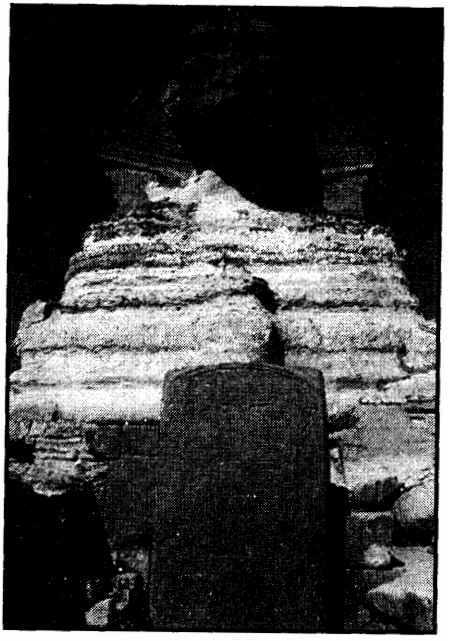

بين ذراعى ابو الهول الأماميتين نرى النصب التذكـارى الذى سجل عليه تحوتمس الرابع قصة الحلم الذى رآه

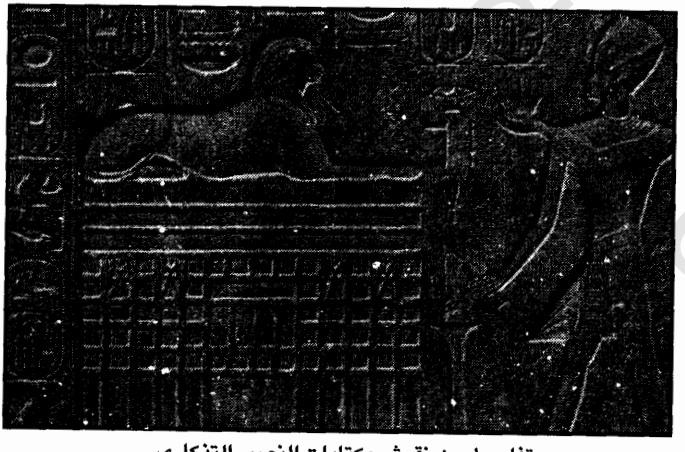

تفاصيل من نقوش وكتابات النصب التذكارى

obeikan.com

معابد آمون والقائمين عليها من الكهنة بمختلف درجاتهم ومراتبهم الدينية . وبالتالى فقد أصبح هؤلاء الكهنة من ذوى السلطة الذين يعمل لهم الملوك ألف حساب .

* ويقول المؤرخون إن ملوك هذه الأسرة ـ بدءاً من تحوتمس الرابع ـ قد تنبهوا إلى ضرورة مواجهة كهنة آمون وتقليص سلطاتهم بالتدريج فى عهده وعهد ابنه أمنحوتب الثالث ، حتى تم القضاء عليها نهائياً فى عهد اخناتون العظيم الذى أعلن القضاء على عبادة جميع الآلهة المتعددة فى مصر بما فيهم الإله آمون والسماح بعبادة إله واحد لا شريك له .

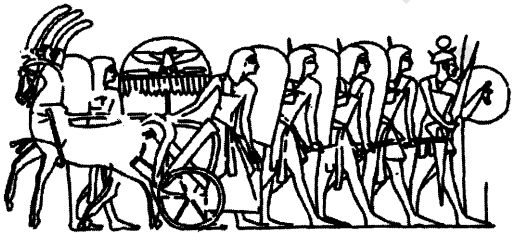

obeikandl.com

وانهمرت الثروات على مصر كالمطر

فى عام ١٤٠٥ ق م مات « تحوتمس الرابع » رائد الدبلوماسية فى العالم القديم ، وخلفه على عرش الامبراطورية المصرية « امنحوتب الثالث » الذى استمر حكمه حوالى ٣٦ عاماً بلغت مصر خلالها قمة من قمم الغنى والثراء لم تشهدها فى عصورها وأزمانها السابقة ، ولم تشهدها أية دولة أو امبراطورية من دول وامبراطوريات العالم القديم . . وتميز عهد هذا الملك بسلام ساد ورفرف على كل ربوع الامبراطورية المصرية من أقصاها جنوبا إلى أقصاها شرقاً وشمالاً . . كما تميز بتحالفات سياسية وعلاقات حسنة بين مصر والدول الآسيوية الوليدة المجاورة لحدود الامبراطورية .

* وفى عهده أيضا امتلأت الخزائن والمخازن بمختلف أنواع الجزية التى كانت تفد إلى مصر من الإمارات والدويلات والأقاليم التابعة للامبراطورية المصرية فى ربوع آسيا وأفريقيا . . من حبوب وغلال ومحاصيل زراعية وزيوت وبخور وعبيد وإماء وخيول وثيران ومواشى وأخشاب ثمينة وأخشاب عطرية وذهب وفضة ونحاس وقصدير ﴿ فى شكل قوالب وسبائك وحلقات ﴾ وأنواع من الأسلحة والعربات الموشاة بالذهب والفضة والأباريق والأطباق الفاخرة والأوانى الفينيقية الشهيرة ذات الزخارف الرائعة وأدوات الزينة والعاج الخام والمصنّع وريش النعام وأنواع من الحيوانات الحية كالدببة والأفيال والقردة والفهود والنعام والزراف وكلاب الصيد . . بالاضافة إلى الهدايا «الطوعية » التى كانت ترسلها الدول المتاخمة لحدود الامبراطورية المصرية فى آسيا والدول والامارات الوليدة فى اليونان وكريت وقبرص وجزر بحر إيجه تقرباً إلى مصر باعتبارها الدولة العظمى فى العالم خلال تلك الفترة .

* هذا بالاضافة طبعاً إلى الثروات التقليدية فى مصر والخيرات التى كانت تحصل

التمثالان الضخمان للملك امنحوتب الثالث وزوجته الملكة « تى » ـ من
معروضات المتحف المصرى

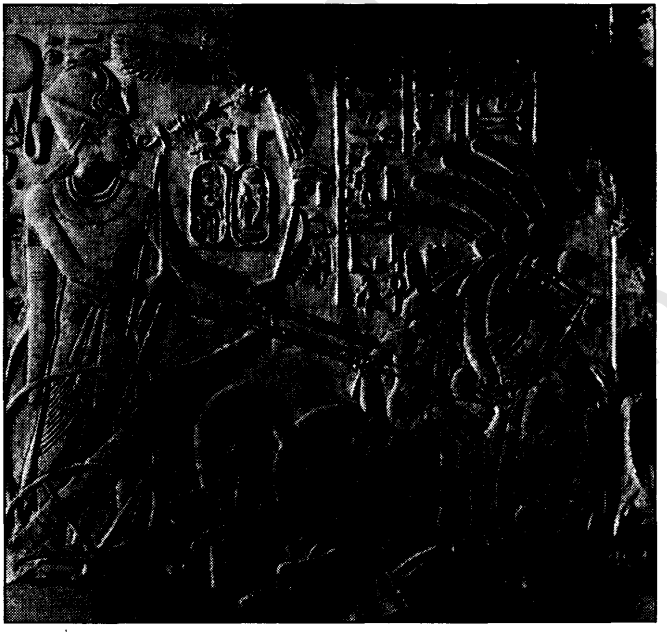

نقش تقليدى يصور الملك« امنحوتب الثالث » فى عربته الحربية وهو يمسك
بمجموعة من الأسرى الزنوج

عليها من حقولها ومناجم الذهب فى الصحراء الشرقية ومناجم النحاس فى سيناء والانتشار الواسع للمصانع الجديدة التى تخصصت فى الأعمال الفنية والصناعات الدقيقة والتى أدت بالتالى إلى ازدهار التجارة الدولية بين مصر ومعظم أنحاء العالم القديم . . ولأجل حماية وتنظيم هذه التجارة أنشأت مصر نظاماً جمركياً فى موانى البحر الأحمر والبحر المتوسط والموانى النيلية لتحصيل الضرائب على الواردات والصادرات ، كما تولت السفن المصرية ونقط الحراسة التى أنشأتها مصر على سواحلها فرض الحماية على السفن التجارية المصرية والأجنبية لمنع أعمال القرصنة التى انتشرت فى ذلك العصر خصوصاً فى مناطق البحر المتوسط .

* وكانت من نتيجة هذا التبادل التجارى بين مصر والدول الأجنبية أن انتشرت مظاهر الحضارة المصرية فى العالم القديم ، كما انتشر الذوق المصرى فى الصناعات اليونانية على وجه الخصوص ، وانتشرت العبادات المصرية فى جزيرة كريت ، بل واستعملت بعض الرموز والعلامات الهيروجليفية كوسيلة للكتابة والتسجيل قبل ظهور وانتشار الأبجدية اليونانية . . كما أدى أيضا إلى تطوير الصناعات المصرية بأساليب جديدة استوعبها الصناع المصريون ثم طبعوها بطابع مصرى خالص .

* وبسبب كثرة كميات الذهب الذى كانت تحصل عليها مصر من مناجمها ومن بلاد النوبة فقد انخفضت قيمته أمام قيمة الفضة التى أصبحت نادرة بالنسبة لكميات الذهب المتوفرة فى مصر ، وذلك بسبب عدم وجود مناجم للفضة فى مصر ، كما ازدادت قيمة الأحجار الكريمة التى كانت تحصل عليها مصر من الدول الأجنبية أو من المناطق الآسيوية التابعة لها .

* هذا الرخاء الاقتصادى والثراء الواسع الذى انتشر فى ربوع الديار المصرية كانت له آثار اجتماعية على جميع طبقات الشعب المصرى بدءاً من العائلة المالكة إلى طبقة النبلاء والطبقة الحاكمة ورجال الدين والموظفين كبارهم وصغارهم ، كما عاد أيضاً على الطبقات الدنيا من الشعب من فلاحين وعمال وحرفيين . . فقد انغمس الجميع منعمين فى الترف ومظاهر الحياة الباذخة . غير أن هذه الحياة المترفة الناعمة كانت لها

آثار سياسية سلبية ، فقد أطفأت شعلة الروح الحربية للملوك وقادة الجيوش الشجعان الذين كانوا يقودونها إلى ساحات النصر والفخار ، فحدث استرخاء عسكرى أدى فى نهاية الأمر إلى تفكك أوصال الامبراطوية المصرية ، وإفلات الكثير من الإمارات والمناطق التابعة للامبراطورية من نفوذ الحكم المصرى .

obeikandl.com

ملك الملذات

فى عهد امنحوتب الثالث ﴿ ١٤٠٥ - ١٣٧٠ ق م ﴾ عاشت الامبراطورية المصرية أزهى وأمجد عصورها بفضل حالة السلام التى سادت فى كل ربوعها ، وبفضل الثروات التى تدفقت على مصر من كافة أنحاء العالم القديم . . فانغمس الجميع فى الملذات وعلى رأسهم الملك نفسه الذى يحلو لبعض المؤرخين أن يطلقوا عليه لقب « ملك الملذات » .

* وتدل مومياؤه التى عثر عليها على أنه قد أصبح فى أواخر أيامه معتل الصحة لكثرة ما أنهك جسمه فى التمتع بالزوجات والسرارى والجوارى اللواتى بلغ عددهن المئات ، كما تدل بقايا أسنانه على الأمراض التى أصيبت بها نتيجة للنهم فى أكل الحلوى .

* وتدل الشواهد الأثرية وأهمها « رسائل العمارنة » التى عثر عليها الأثريون فى بقايا آثار وأطلال تل العمارنة بمحافظة المنيا ، وهى مدينة « آخت آتون » التى بناها ابنه «أخناتون » ليجعلها عاصمة لمصر بدلاً من « طيبة / الأقصر » . وكانت هذه الرسائل التى يزيد عددها على ٣٠٠ رسالة مكدسة فى رفوف حجرة أغلب الظن أنها كانت الأرشيف الملحق بالقصر الحكومى . وتتناول غالبية هذه الرسائل موضوعات سياسية أو موضوعات تتعلق بصلات مصر بإمارات سوريا وبلاد النهرين وفلسطين التابعة للامبراطورية المصرية ، والصلات الدبلوماسية التى كانت قائمة بين مصر وملوك وحكام الدول الأجنبية المتاخمة لحدود الامبراطورية مثل ملوك بابل ونينوى وميتانى وقبرص وكريت وغيرها من الدول الأجنبية الأخرى . .

* كما كانت هذه الرسائل تتضمن أيضا موضوعات تتناول علاقات الصداقة

نقش على نصب تذكارى يصور الملك امنحوتب الثالث مسترخياً بسبب ضعف صحته فى أواخر أيامه [من معروضات المتحف البريطانى بلندن]

الشخصية التى كانت قائمة بين هؤلاء الملوك والحكام والملك المصرى . . ونفهم من بعض تلك الرسائل أن هؤلاء الملوك الأجانب كانوا يرسلون بناتهم للزواج من الفرعون . وتزوج الملك فعلا بالكثيرات منهن ، وأشهرهن إبنة ملك ميتانى الأميرة « جيلوخيبا » التى جاءت إلى مصر وفى صحبتها ٣١٧ وصيفة انضمن إلى الحريم الملكى .

* وبالرغم من أن امنحوتب الثالث قد تزوج بكثيرات من بنات الملوك الأجانب إلا انه لم يجعل أية واحدة منهن « ملكة شرعية » . . بل تزوج من إحدى بنات الشعب المصرى وأعطاها وحدها لقب « الملكة الشرعية للبلاد » وهى الملكة « تى » التى أنجب منها « أخناتون » والتى يعتبرها المؤرخون من أعظم نساء التاريخ المصرى القديم ذكاءً وقوة شخصية وعزيمة . . وكان لها الفضل الأكبر فى ادارة شئون الامبراطورية الداخلية والخارجية . . وذاعت شهرتها بين الملوك والحكام الأجانب الذين كانوا يدركون مكانتها فى حكم مصر والإمارات والأقاليم التابعة للامبراطورية المصرية .

* ولأن امنحوتب الثالث كان ولوعاً بالنساء منذ أوائل أيامه ، فقد ازداد غراماً بهن بعد أن تولى الملك ، وكاد أن يتفرغ تماماً لشئون الحريم والنساء اللواتى كن يملأن قصوره . . بل واعتاد أن يكتب لنوابه فى أنحاء الامبراطورية طالبا منهم أن يرسلوا إليه أجمل الجميلات من النساء والعذارى اللواتى لم يمسسهن بشر ، بل وكان يحرص على أن تكون النساء المطلوبات مجموعة متنوعة من الشقراوات والسمراوات وذوات العيون الخضراء أو الزرقاء أو السوداء .

* ومع ذلك فقد حرص على عادة الفراعنة فى رفض تزويج بناتهم للأجانب . . وحين تجاسر أحد ملوك بابل واسمه « كاداشمان إنليل » وطلب منه أن يرسل إحدى بناته ليتزوجها ويجعلها ملكة على بابل ، كتب له امنحوتب الثالث رداً صريحاً قال فيه : « إن ملوك مصر لا يوافقون على تزويج بناتهم للأجانب ولو كانوا ملوكا » . . وبالرغم من هذا الرفض القاطع فقد ظلت مملكة بابل محافظة على أواصر الصداقة مع مصر وملكها . . واستمر التنافس بينها وبين الممالك الأجنبية الأخرى مثل أشور وميتانى وقبرص وكريت فى إعلان الولاء لمصر لاكتساب محبتها وصداقتها واحترام الجالس على عرشها .

ازدهار التعليم فى الامبراطورية المصرية

أدى الرخاء الاقتصادى والثراء العظيم الذى عاشته مصر فى عصر الامبراطورية إلى حدوث ازدهار فى كل مناحى الحياة الاجتماعية التى كان يحياها الشعب المصرى بجميع فئاته وطبقاته ، كما حدثت تطورات هائلة فى نظم التعليم والاتجاهات المستحدثة فى الأدب والفن والعمارة .

* فقد انتشرت المدارس ، وكانوا يسمونها « بيوت الحياة » فى كافة المدن المصرية . وكانت الغالبية العظمى من تلك المدارس ملحقة بالمعابد الدينية ، أو ملحقة بالمبانى العظيمة الخاصة بالادارات الحكومية . وكان من المعتاد تعيين خريجى المدارس الابتدائية الذين يجيدون الكتابة ككتاب فى الادارات الحكومية ، ثم يستمرون فى تحصيل العلم والخبرات العملية على أيدى كبار الموظفين ورؤسائهم المباشرين ، وذلك استكمالاً للمناهج التعليمية التى كانت سائدة فى تلك المدارس والتى كانت تهتم إلى جانب تعليم اللغة وقواعدها وتجويد خط الكتابة ومبادىء الحساب والعلوم الرياضية والتمرين على تسجيل الأعمال المدنية والتجارية ، بالاضافة إلى الالتزام بنسخ عدة موضوعات إنشائية لتلقين التلاميذ بالميراث الحضارى لحكماء مصر الأقدمين الذى يتضمن إلى جانب الحكمة والأمثال كل المبادىء الأخلاقية القويمة وأصول التربية السليمة .

* ولحسن الحظ فقد تم العثور على ثلاث نسخ من « كتاب تعليمى » يتضمن موضوعات المناهج العلمية التى كانت تدرس فى « بيوت الحياة » وتبين ان هذا الكتاب من وضع معلم اسمه « أمنموبى » . وقد وضع له مؤلفه عنواناً كبيراً هو : « التعاليم التى تجعل الفرد أديباً . . وتعلم الجاهل علم كل كائن . . وكل ما صنعته الآلهة من

السماء ونجومها . . والأرض وما عليها . . وما تخرجه الجبال . . وما تجود به البحار . . وكل ماله علاقة بكل الأشياء التى تضيؤها الشمس . . وكل ما ينمو على الأرض » .

* وقد عكف المؤرخون ـ ومنهم « جاردنر » و « الدكتور سليم حسن » ـ على دراسة متون هذا الكتاب ، وأشاروا إلى أنه منقسم إلى عدة أبواب منها باب يتضمن اسماء ومعلومات عن السماء والنجوم والكواكب والشمس والقمر والسحب والعواصف وظواهر الفجر وضوء النهار وظلام الليل . . وباب متخصص فى أشكال المياه الموجودة فى الطبيعة وأنواع التربة الأرضية . . وباب عن أنواع الكائنات الحية ودرجاتها ومراتبها بدءاً من الآلهة والإلهات والأرواح ، والمخلوقات البشرية حسب مراكزها الاجتماعية من ملوك وملكات وكبار موظفى الدولة ورجال الدين والعلماء والموظفين والحرفيين . . وباب عن أسماء الأجناس البشرية وألقاب ورتب الجنود وأسماء الشعوب الأجنبية وأسماء الأماكن المختلفة فى كافة الجهات . . وباب يتضمن أسماء ٩٦ مدينة مصرية و ٤٢ مصطلحاً علميا وهندسيا عن المبانى وأجزائها وأنواع الحقول والأراضى الزراعية . . وباب عن مأكولات ومشروبات الانسان يتضمن ٤٨ نوعاً من اللحم المطبوخ و ٢٤ نوعاً من الشراب و ٣٣ نوعاً من اللحم النيىء . . وباب أخير يتضمن أسماء وأنواع الطيور والمواشى والحيوانات .

* كذلك فقد انتشر تعليم اللغات الأجنبية كضرورة للتفاهم والتراسل بين مصر والإمارات والدويلات الآسيوية والأفريقية التابعة لها . . وبينها وبين الدول الأجنبية المتاخمة لحدود الامبراطورية المصرية والدول الأخرى التى كان حكامها ينشدون ويحرصون على عقد أواصر الصداقة مع مصر مثل كريت وقبرص وجزر بحر إيجه . . وقد اقتضى الأمر أن يتعلم المصريون هذه اللغات المختلفة قراءة وكتابة وحديثا، حتى أصبح من المعتاد أن يتباهى المثقفون والشباب بحشر الكلمات والمصطلحات والجمل الأجنبية ضمن أحاديثهم كنوع من التميز والتفاخر بالعلم والمعرفة وسعة الأفق .

الامبراطورية .. ووحدة مصر والسودان وسوريا

فى عصر الأسرة الثامنة عشرة ﴿ ١٥٧٠ - ١٣١٠ ق م ﴾ امتدت الامبراطورية المصرية فى ربوع آسيا وأفريقيا ، بعد أن وصلت الفتوحات المصرية إلى منطقة الشلال الرابع فى شمال السودان ، وفرضت نفوذها وحمايتها على الطرق التجارية التى كانت تربط بين هذه المنطقة ومناطق شرق ووسط أفريقيا ، ثم واصلت الجيوش المصرية فتوحاتها فى عهد عبقرى العسكرية المصرية الفاتح العظيم « تحوتمس الثالث » ﴿١٥٠٤ - ١٤٥٠ ق م ﴾ حتى فرضت النفوذ المصرى على جميع المناطق السورية التى كانت تشمل المواقع الحالية لدول فلسطين واسرائيل وسوريا ولبنان والأردن والعراق وجنوب شرق تركيا .

* وتدل شواهد تاريخية وأثرية كثيرة على أن مصر كانت تتطلع دائما ومنذ أقدم العصور إلى الربط بينها وبين بلاد النوبة وشمال السودان باعتبارها تمثل العمق الاستراتيجى الجنوبى للديار المصرية ، بل وكانت تعتبر بلاد النوبة بالذات - شمالها وجنوبها - جزءاً لا يتجزأ من مصر نفسها ، كما كانت تعتبر أهالى هذه البلاد مثل المصريين تماماً من حيث الحقوق والواجبات ومن حيث الخدمة العسكرية فى الجيوش المصرية ، خصوصاً فى عصر الدولة الوسطى فى القرن العشرين قبل الميلاد .

* وهناك بحوث ودراسات تركها عتاة المؤرخين ودارسو الحضارة المصرية القديمة عن إثبات وجود علاقة وثيقة خاصة بين جنوب مصر وبلاد النوبة وشمال السودان ترجع إلى عصور مّا قبل التاريخ . . وكلما ارتقت مصر فى حضارتها وازدادت قوتها ، كانت تحرص فوراً على حماية بلاد النوبة من هجمات القبائل الطامعة فيها والتى تحاول التسلل إليها من الجنوب . . وهناك قلاع حربية كثيرة شيدتها مصر فى أرض النوبة فى

مختلف حقبات التاريخ المصرى القديم بالاضافة إلى ما شيدته مصر أيضاً من معابد دينية كانت تعبد فيها الآلهة المصرية ، خصوصاً فى عصرى الدولتين الوسطى والحديثة .

* وفى بعض الأحيان كانت بعض القبائل النوبية تعلن العصيان ضد السلطة المصرية ، الأمر الذى كان يؤدى إلى تجهيز الحملات العسكرية للقضاء على تلك الاضطرابات والقلاقل ، وإعادة السلام والاستقرار السياسى لتدعيم العلاقات الخاصة المتميزة التى كانت ترتبط المناطق النوبية بالديار المصرية .

* وكانت النوبة وشمال السودان معروفة فى التاريخ القديم باسم بلاد « كوش » . . أما اسم « النوبة » فهو تحريف لكلمة « نوب » وهى كلمة فى اللغة المصرية القديمة معناها « الذهب » . . وهو معنى يتضمن إشارة واضحة إلى كميات الذهب الهائلة التى كانت ترد إلى مصر من تلك البلاد ، والتى ساعدت مصر مساعدة عظيمة فى بناء مجدها فى المناطق الآسيوية وفى إقامة المعابد والقلاع والمبانى والمنشآت الضخمة التى شيدها ملوك الدولة الحديثة فى داخل مصر وخارجها .

* ونظراً للمكانة الخاصة للنوبة بالنسبة للعرش المصرى ، كان حاكم النوبة عند تعيينه يمنح لقب « ابن الملك » . وهو لقب من ألقاب التشريف ، ولا يدل على أن هذا الحاكم كان بالضرورة من أبناء الملك .

* وتدل الشواهد التاريخية والأثرية على أن جميع المناطق السورية - بالمفهوم الذى أشرنا إلية مسبقا - كانت فى حالة استكانة إلى الحكم المصرى ، بسبب الحماية التى تمتعت بها تلك المناطق التى كانت محلاً لأطماع العديد من الدول الفتية الناشئة التى كانت تحيط بتلك المناطق السورية من الشرق ومن الشمال . . كما تدل رسائل العمارنة على استقرار الأمن والسلام فى جميع أنحاء المناطق السورية التابعة للامبراطورية المصرية فى عهد الملك « امنحوتب الثالث » ﴿ ١٤٠٥ - ١٣٧٠ ق م ﴾ .

الامبراطورية المصرية .. مركز للثقافة العالمية

لم تكن الامبراطورية التى أسستها الأسرة الثامنة عشرة فى ربوع آسيا وأفريقيا على نمط المفهوم السياسى الحديث لمعنى الامبراطوريات التى أسستها الدول الاستعمارية فى العصور الحديثة . فلم تكن هناك قوات احتلال من الجيش المصرى تعسكر بصفة دائمة فى تلك المناطق والأقاليم التى أصبحت تابعة لمصر ، تفرض سيطرتهاوسيادتها وسلطانها . . ولم يكن هناك حكام مصريون يتولون إدارة شئون تلك الأقاليم ويملون إرادتهم على الأهالى ، بل تركت أمور الحكم لأمراء البلاد الأصليين الذين يعلنون ولاءهم لمصر ، أو للأمراء الذين تلقوا علومهم فى المدارس المصرية وتربوا وسط أندادهم من الأمراء المصريين وتشبعوا بالثقافة المصرية .

* ويقول المؤرخون المتعمقون فى تحليل التاريخ المصرى القديم إن الدافع الأساسى الذى قامت عليه الامبراطورية المصرية كان يتمثل فى رغبة المصريين فى عدم تكرار التجربة المريرة التى حلت ببلادهم حين احتل الهكسوس أرض مصر وفرضوا جبروتهم وهمجيتهم على الشعب المصرى . . فبعد أن انبرى المصريون لمحاربة الهكسوس ونجحوا فى طردهم من البلاد ، ظلوا حريصين على مطاردة الفلول الهاربة من هؤلاء الهكسوس الذين فروا وانتشروا فى فلسطين والمناطق السورية ، واضطر المصريون لذلك لغز وتلك المناطق بقصد القضاء على الهكسوس بصفة نهائية .

* وإذا رجعنا إلى تاريخ ذلك العصر لوجدنا أن تلك المناطق السورية كانت محاطة من الشرق ومن الشمال بدول « طامعة » كانت لم تزل فى دور النشأة ، ووضعت ضمن أهدافها السيطرة على المناطق السورية بمفهومها الواسع الذى كان يتضمن فلسطين والأردن وسوريا ولبنان وجنوب شرق تركيا . . لذلك فلم يكن من المستغرب ان أهالى

هذه المناطق السورية وجدوا فى مصر دولة قوية يمكنها أن تحميهم من أطماع تلك الدول الناشئة ، وذلك فى مقابل « الجزية » التى كانت تدفعها تلك المناطق طواعية نظير تلك الحماية .

* وهناك العديد من الشواهد التاريخية والأثرية التى تدل بشكل قاطع على وجود علاقة بين الشعب المصرى القديم وشعوب وسكان جنوب فلسطين والسواحل اللبنانية والسورية . وترجع هذه العلاقة إلى عصور ما قبل التاريخ وعصرى الدولتين القديمة والوسطى . ومن المؤكد أن هذه العلاقات قد توطدت خلال عصر الامبراطورية المصرية حيث لمس سكان وأهالى المناطق السورية دماثة أخلاق الشعب المصرى باعتباره أرقى شعوب المنطقة حضارة ورقياً . ولذلك فقد توافد إلى مصر مئات وآلاف من هؤلاء السكان والأهالى لممارسة التجارة والاحتكاك المباشر بالحضارة المصرية . . الأمر الذى أدى إلى تأثرهم الشديد بالمعالم العامة للفكر المصرى والثقافة المصرية .

* وبالنظر إلى أن الشعب المصرى كان أول شعب من شعوب العالم يعلن فى دياناته وعقائده أن هناك حياة أخرى بعد الموت يحاسب فيها الميت حساباً عسيراً على كل ما فعله فى دنياه من خير وكل ما اقترفه من ذنوب أو شرور ، وأن الميت لكى يفوز بدخول «الجنات » فى حياته الآخرة فإن عليه أن يثبت أنه كان ملتزماً بالتعاليم الأخلاقية الراقية أثناء حياته الدنيا . . وقد شاعت هذه الأفكار المتحضرة بين سكان وأهالى المناطق الآسيوية التى دخلت فى نطاق الامبراطورية المصرية ، بل وشاعت أيضا بين دول وأقاليم أجنبية أخرى لم تكن داخله فى نطاق الامبراطورية مثل قبرص وكريت وجزر بحر إيجه ، بالاضافة إلى الدول الآسيوية المتاخمة لحدود الامبراطورية فى الشرق وفى الشمال .

* وبالاضافة إلى تلك الثقافة الدينية الأخلاقية انتشرت أيضا الثقافة الفنية المصرية مثل المسرح والموسيقى والرقص والغناء بالطريقة المصرية ، كما انتشرت أيضا الآداب والأساطير المصرية التى استوحاها سكان وأهالى الأقاليم الآسيوية وشعوب الدول الأخرى الذين نسجوا آدابهم وأساطيرهم المحلية طبقاً للنسق والنمط المصرى فى الصياغة بل وفى تماثل الأحداث والعبر والأهداف التى تميزت بها الآداب والأساطير

المصرية . وبالاضافة إلى ذلك قد تأثرت هذه الشعوب جميعها بالثقافة المادية المصرية المتمثلة فى صناعة الأوانى وزخرفتها وفى صناعة العطور وأدوات التجميل وصناعة الحلى والمجوهرات . ولذلك فلم يكن من الغريب أن الآثار التى يتم العثور عليها فى كثير من المناطق الآسيوية والدول الأجنبية يظهر فيها بوضوح تأثرها بالطابع المصرى القديم الذى كان سائداً فى عصر الامبراطورية .

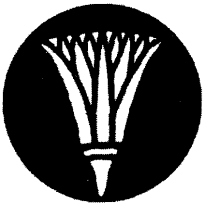

obeikandl.com

الامبراطورية المصرية ..
والمؤثرات الحضارية الأجنبية

من المؤكد أننا إذا وضعنا أحد الأعمال الفنية التى أبدعها فنانو مصر القدماء وسط آلاف من الأعمال الفنية التى ابدعها الفنانون ـ القدماء والمحدثون ـ من غير المصريين على مدى آلاف السنين ، فإن أى مشاهد ـ مصرى أو غير مصرى ـ يستطيع أن يلتقط العمل الفنى المصرى القديم فى لمحة عين ، ويستخرجه من بين جميع الأعمال الفنية الأجنبية القديمة أو الحديثة على حد سواء . . وهنا قد يثور التساؤل : لماذا أمكن تحديد العمل الفنى المصرى القديم بمثل هذه السرعة وبمثل تلك السهولة ؟!

* الإجابة على ذلك يسيرة كل اليسر . . فقد كانت مصر القديمة تتميز بحضارة عريقة راسخة . . وكان الشعب المصرى القديم من أكثر شعوب العالم « محافظة» على التقاليد وتمسكا بأصول الحضارة التى بلغها وتميز بها عن جميع الحضارات الأنسانية الأخرى . وعلى سبيل المثال فقد كانت هناك مجموعة من القواعد والقوانين تتحكم فى إبداعات الفنانين المصريين القدماء . . وكانت هذه القواعد والقوانين نبعاً رائقا وفيضا جارفاً لكل التجارب العملية التى ابتكرها الفنانون المصريون فى كل القرى والمدن والأقاليم المصرية شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، والتى ظلت راسخة وأصبحت كالقوانين الملزمة لجميع الفنانين المصريين على مدى التاريخ المصرى القديم كله . وهذا فى نظرى يمثل عبقرية الفن المصرى القديم التى يتميز بها عن فنون العالم أجمع منذ أقدم عصور التاريخ وحتى الآن .

* وكما كانت مصر « محافظة » على التقاليد والقواعد الفنية ، فقد ساد هذا «التحفظ» أيضاً فى التقاليد والقواعد والقوانين الاجتماعية والدينية والأخلاقية التى تحكم

سلوكيات الشعب المصرى القديم بجميع طبقاته ، سواء فى العلاقات والمعاملات اليومية ، أو فى الجانب المظهرى . . ولذلك فلم يكن غريباً أن نرى فى معظم النقوش الأثرية التى تصور أفراداً ينتمون إلى مختلف فئات وطبقات الشعب ، انهم جميعاً كانوا يرتدون زياً موحداً فى شكله وتصميمه ، وكانوا جميعاً حليقى الذقون ويحلقون شعر رؤوسهم بطريقة موحدة ، كما كانت النساء لهن طرق متماثلة لتصفيف الشعر ولتصميم الأزياء التى كن يرتدينها إلى آخر الأشكال المظهرية التى تميز بها الشعب المصرى القديم عن الشعوب الأجنبية الأخرى التى عاصرتهم فى حقب التاريخ المختلفة .

* ومع ذلك يحلو لبعض المؤرخين القول بوجود مؤثرات حضارية أجنبية أثرت فى الحضارة بعد أن اختلط المصريون فى عصر الامبراطورية بالشعوب غير المصرية ، سواء فى ذلك الشعوب التى دخلت فى نطاق النفوذ الامبراطورى المصرى ، أو الشعوب الأجنبية الأخرى فى المناطق الآسيوية ومناطق جنوب أوربا خصوصاً فى كريت ورودس وجزر بحر إيجه ، والشعوب التى كانت تسكن أرض اليونان وبعض جزر البحر المتوسط التى كانت بينها وبين مصر علاقات صداقة أو علاقات تجارية . ويضرب هؤلاء المؤرخون أمثلة على ذلك بدخول أنماط وأشكال جديدة من الأوانى الكبيرة والصغيرة المصنوعة من الفخار أو المرمر أو الخزف الملون ، وطرق تكنولوجية جديدة فى صناعة الخزف والزجاج الملون ، وأنماط وأشكال جديدة فى خطوط الوحدات الزخرفية ، وأنواع وتصميمات جديدة من قطع الأثاث والآلات الموسيقية .

* ومع ذلك فإن هؤلاء المؤرخين وعلماء الآثار يعترفون بأن الفنانين والصناع المصريين سرعان ما طوروا هذه المستجدات وطبعوها بالطابع المصرى الخالص الذى تميزت به الفنون التطبيقية والصناعات المصرية . . وذلك لأن الحضارة المصرية كانت أضخم وأرقى وأكثر رسوخاً وأصالة ، لدرجة تجعل من الصعب أن تتأثر بمؤثرات خارجية أجنبية دخيلة .

بداية التآمر على الامبراطورية المصرية

مات امنحوتب الثالث فى عام ١٣٧٠ ق م ، ، وكانت الامبراطورية المصرية فى أوج مجدها وعظمتها ، وتتمتع المناطق الداخلة فى نطاقها بالسلام والاستقرار السياسى والاستكانة إلى ما كانت تتيحه لها الجيوش المصرية من حماية ضد الطامعين فى أراضيها والراغبين فى فرض السيطرة على شعوبها .

* وبطبيعة الحال فقد كانت الامبراطورية فى أشد الحاجة إلى أن يتولى عرشها ملك سياسى محنك قادر على إدارة شئونها بقدر كبير من الحنكة السياسية والادارية تضمن استمرار الأحوال على ما كانت عليه ، أو ملك محارب قوى يستطيع أن يجيش الجيوش ويعد العدة للسيطرة على الاضطرابات أو حالات العصيان المحتملة والتى تحدث عادة بعد موت الملوك الأقوياء ، خصوصاً وأن المناطق السورية الداخلة فى نطاق الامبراطورية المصرية كانت محاطة من الشمال والشرق بدول ناشئة ذات أطماع توسعية ، وتنتهز أية فرصة للانقضاض على هذه المناطق السورية ، سواء بالعمليات العسكرية ، أم بتأليب حكام تلك المناطق وتشجيعهم على التآمر واعلان العصيان ضد النفوذ المصرى .

* ولكن عرش مصر انتقل بعد موت امنحوتب الثالث إلى ابنه امنحوتب الرابع الذى غير اسمه وأطلق على نفسه اسم « أخناتون » والذى سرعان ما انغمس فى الأمور الدينية والفلسفية قلبا وقالبا ، وهى أمور كانت تملأ فكره ووجدانه باعتباره أول داع فى التاريخ القديم يعلن « وحدانية الله » وان الله واحد أحد لا شريك له خالق كل شىء فى الوجود . . وانصرفت جهوده كلها إلى إغلاق كل معابد الآلهة المتعددة المتناثرة فى كافة مناطق وأقاليم البلاد طولاً وعرضاً ، وعدم السماح إلا بعبادة الإله الواحد الذى

أخناتون ونفرتيتى يمارسان طقوس عبادة الإله الواحد « آتون »

يدعو إليه ، ليس فى مصر وحدها ، بل ويدعو إلى عبادته أيضا فى كافة أنحاء الامبراطورية ، بل وفى جميع أنحاء العالم باعتباره الإله الذى خلق جميع الموجودات فى هذا العالم . . وكانت هذه الثورة الدينية التى أعلنها وقادها أخناتون ، بما صاحبها من ثورة فنية وانقلاب فى المعايير والمفاهيم الاجتماعية سببا فى نشوب عداوة شديدة من جانب كهنة الإله « آمون » وكهنة الآلهة الآخرين وكل من كانت لهم مصالح فى تعدد العبادات وما يصاحبها من الثروات الهائلة المخصصة للمعابد ، ضد أخناتون وأفكاره الثورية .

* ويقول برستيد : إن اخناتون ـ بالرغم من كل المشاكل التى سببتها ثورته ـ قد أصبح أبرز شخصية بين ملوك العالم على توالى الأجيال ، كما أن أسبقيته فى إعلان ديانة التوحيد جعلته يتبوأ مكانة فكرية رفيعة فأصبح أعظم الفراعنة المصريين فلسفة وواحداً من أعظم ملوك العالم شخصية وفكراً على مدى التاريخ البشرى كله .

* وبالرغم من أن ملك دولة « الحيثيين » فى الشمال ، وكذلك ملوك دولة « بابل » ودولة « ميتانى » فى الشرق ، قد أرسلوا خطابات تعزية إلى أخناتون عند سماعهم لخبر وفاة أبيه امنحوتب الثالث مع تهنئتهم له بتوليه عرش الامبراطورية المصرية ، واعترافهم بصراحة ووضوح ـ فى تلك الخطابات ـ بنفوذ مصر وسيطرتها على المناطق السورية ، إلا أنهم جميعاً كانوا متربصين بهذه المناطق ، ويسعون إلى السيطرة عليها وإلى تأليب حكامها وولاتها ضد النفوذ الامبراطورى المصرى ، حتى تصبح هذه المناطق لقمة سائغة تبتلعها هذه الدول الناشئة حين يحين وقت الانقضاض عليها وإخراجها من مناطق النفوذ المصرى بصفة نهائية ، بل وخططت دولة الحيثيين أيضا للانقضاض على مصر نفسها عندما تسمح الظروف بذلك .

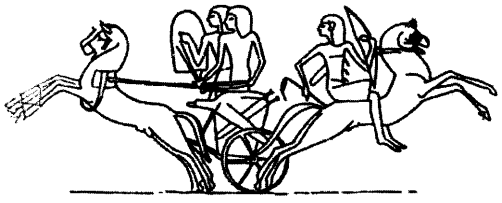

فلاحة صعيدية اكتشفت رسائل العمارنة

سألنى كثيرون من الأصدقاء من قراء « الوفد » عن ماهية « رسائل العمارنة » التى أشرت إليها فى بعض الدراسات السابقة من « أم الحضارات » التى نشرتها الجريدة . . وما هى علاقتها بتاريخ مصر القديمة على وجه العموم وتاريخ الامبراطورية المصرية على وجه الخصوص . . وما هى اللغة التى كتبت بها تلك الرسائل . . ومن أين جاءت ومن أرسلها . . وأين توجد هذه الرسائل الآن . . ؟

* واعتقد أن هؤلاء الأصدقاء لهم حق فى كل هذه التساؤلات . . فلهذه الرسائل أهمية كبرى فى معرفة تاريخ مصر فى عصر الامبراطورية ، وأهمية أكبر فى معرفة تاريخ العالم القديم بأكمله خلال الفترة المعاصرة لزمن الإمبراطورية المصرية [القرن الرابع عشر قبل الميلاد] خصوصاً فى عهد الملكّ « أمنحوتب الثالث » وعهد ابنه الملك «أخناتون » .

* وقصة العثور على تلك الرسائل قصة طريفة قد يكون من الأفضل أن نحكيها من البداية . . فقد تم العثور عليها بين الأطلال المتبقية من مدينة « آخت أتون » وهى المدنية التى بناها أخناتون واتخذها عاصمة لمصر بعد أن ترك « طيبة / الأقصر » التى كانت عاصمة للبلاد فى عهود أسلافه وخلفائه من ملوك مصر العظام . وتسمى هذه المدينة حالياً باسم « تل العمارنة » وهى عبارة عن قرية صغيرة تقع على الضفة الشرقية للنيل بمحافظة المنيا . وكانت اسمها قرية « التل » ولكن بعض علماء الآثار أطلقوا عليها اسم « تل العمارنة » نسبة إلى قبيلة « بنى عمران » التى استوطنت فى تلك القرية . ومن المعروف تاريخياً وأثرياً أن مدينة « آخت أتون » القديمة قد دمرت تدميراً وسويت

بالأرض وهدمت كل قصورها وبيوتها ومنشآتها نكاية فى أخناتون بعد موته مباشرة .

* وبعد تدمير هذه المدينة بنحو ٣٣ قرناً ، وبالتحديد فى سنة ١٨٨٧ ميلادية تجولت بين خرائبها فلاحة صعيدية فقيرة تسحب حمارها بحثاً عن سباخ يصلح سماداً للأرض التى كانت تزرعها . . وبين الأطلال والخرائب عثرت هذه الفلاحة على حجرة كانت مكدسة بقوالب وألواح من الطين المحروق [الآجر] عليها نقوش غريبة تبين فيما بعد انها مكتوبة بالخط المسمارى الذى كانت تكتب به اللغة البابلية التى كانت مستعملة فى المراسلات الرسمية والدبلوماسية بين الدول المعاصرة لزمن الامبراطورية المصرية .

* ملأت الفلاحة الجرابين اللذين كان يحملهما حمارها بتلك الألواح وهى تظن أنها عثرت على كنز ثمين من الآثار القديمة . . وباعت هذا الكنز لأحد جيرانها « بعشرة قروش » وهو مبلغ اعتبرته كسباً كبيراً بالنسبة لها . . وحاول هذا الجار أن يبيع هذا الكنز فلم يجد من يشتريه سواء من المصريين المتاجرين فى الآثار أم من العلماء الأجانب المهتمين بجمع القطع الأثرية ، فقد كان شكل وطريقة صنع هذه القوالب والألواح لا يغرى أحداً بشرائها . . ومع ذلك فقد تمت تعبئتها فى أجولة ونقلت إلى مدينتى « إخميم » و « الأقصر » لعلها تجد هناك من يشتريها . وللأسف الشديد فقد تحطم معظمها وتفتت أثناء عملية النقل التى تمت دون عناية وبوسائل بدائية .

* وتنبه بعض علماء الآثار إلى أهمية تلك القوالب والألواح ، وعرف بعضهم أن النقوش المكتوبة بالخط المسمارى عبارة عن مراسلات وخطابات كان قد أرسلها بعض ملوك بابل وآشور وميتانى والحيثيين وبعض حكام وولاة الأقاليم والإمارات السورية التابعة للامبراطورية المصرية إلى الملك امنحوتب الثالث ثم إلى ابنه أخناتون من بعده .

* ويبلغ عدد هذه الرسائل التى ظلت سليمة ويمكن بالتالى قراءتها ودراستها حوالى ٣٦٠ رسالة معظمها محفوظ الآن [١٩٤ رسالة] فى متحف برلين ، وفى المتحف البريطانى [٨٢ رسالة] وفى المتحف المصرى [٥٠ رسالة] وبقية الرسائل موزعة بين متحف أشموليان ومتحف اللوفر ومتحف بروكسل ومتحف لنينجراد ومتحف متروبوليتان ولدى بعض هواة جمع الآثار فى أوربا .

* وقد أسفرت الدراسات العلمية التى أجريت لتلك الرسائل بعد حل رموزها عن معلومات واسعة كان من المستحيل معرفتها عن أحوال العالم القديم السياسية والاجتماعية حيث تمت معرفة أسماء الملوك والحكام الذين كانوا يحكمون تلك الدول الأجنبية وعن الكثير من أحوال بلادهم وعلاقاتهم الدبلوماسية بالامبراطورية المصرية فى عهدى امنحوتب الثالث وأخناتون .

obeikandl.com

الاسترخاء العسكرى ..
وتفكك أوصال الامبراطورية

شغل أخناتون نفسه بالأمور الدينية والفلسفية وتأليف الأشعار والصلوات تمجيداً للإله الواحد الذى دعا إلى عبادته وحده دون شريك . . وانصرف هو ورجال حاشيته الملكية لمقاومة نفوذ كهنة آمون ، ونشر أسس الثورة الدينية والثورة الفنية التى تميز بهما عهده .

* وبالنسبة للأمور والشئون الخارجية للدولة ، فقد استكان أخناتون واطمأن إلى فحوى ما كان يتسلمه من خطابات [رسائل العمارنة] أرسلها إليه ملوك الحيثيين وبابل وميتانى ، وبما كانت تتضمنه هذه الرسائل من نفاق ورياء واعتراف بنفوذ مصر على المناطق السورية وباحترامهم الشديد للدولة المصرية وحاكمها العظيم .

* وفى عهده كانت دولة الحيثيين تنمو باضطراد فى مناطق شمال سوريا وجنوب شرق تركيا ، وأصبح لها جيش قوى مدرب ومسلح بالعجلات الحربية الثقيلة وبأقوى أنواع الأسلحة ، وأتقنوا تنظيم وحدات هذا الجيش الذى كان يتكون فى أغلبه من محاربين أجانب مأجورين .

* كذلك فقد أخذت الرسائل تتوالى وترد إليه من بعض الولاة وحكام الأقاليم السورية التابعة للامبراطورية المصرية ، تحمل أنباء الحروب المحلية التى كانت تنشب بين هؤلاء الولاة والحكام والأمراء الذين كانوا يغيرون على بعضهم بعضا بقصد توسيع نفوذهم والاستيلاء على أراضى الحكام الآخرين . وكان معظمهم يستعينون بملوك الدول المتاخمة لحدود الامبراطورية المصرية فى آسيا مثل ملوك الحيثيين وبابل وميتانى،

الأمر الذى أدى فى النهاية إلى زيادة أطماع هذه الدول فى السيطرة على الأقاليم والمناطق التابعة للامبراطورية المصرية ، وازداد بالتالى حدوث الاضطرابات والفوضى والفتن فى تلك المناطق .

* وكان بعض الولاة وحكام الأقاليم السورية المخلصين للنفوذ المصرى يرسلون رسائلهم طلبا للنجدة ، ويلحون فى إرسال بعض فرق الجيش المصرى لحمايتهم من المؤامرات التى تحيكها الدول الأجنبية للتحريض على إشعال نار الفتنة حتى تصبح الأقاليم السورية تحت سيطرتهم بعد تخليصها من النفوذ المصرى .

* وهكذا سقطت معظم الأقاليم السورية إقليما وراء إقليم فى أيدى الحيثيين . . وفى إحدى رسائل العمارنة نقرأ نصاً أرسله حاكم « بعلبك » التى كانت تابعة للنفوذ المصرى يقول فيه : « إلى سيدنا ملك مصر . . لقد أوشكنا على أن ننفصل عن مملكة سيدنا ملك مصر إذا تأخر عنا وصول الجنود والعجلات الحربية لحمايتنا من الفتن التى يدبرها الآخرون . . إن بعلبك تبكى بكاء مراً ، ولا مغيث لها . . . » .

* ورسالة أخرى أرسلها حاكم ببلوس « جبيل » التابعة للحكم المصرى راجياً أن يرسل الفرعون مساعدة سريعة حتى لا تسقط المدينة فى أيدى العدو . . ثم سقطت حلب التى كانت تسمى « نوخاشى » . . ثم سقطت بيروت وصيدا ومدن شمال فلسطين . . وبالتالى فقد أصبحت بلاد ومدن الساحل الآسيوى فى أيدى الأعداء ، كما تعرضت المناطق الداخلية التى كانت تابعة للنفوذ المصرى فى سوريا وفلسطين إلى هجمات البدو الهمج الذين كانوا يسمون « الخابيرو » أى « العبرانيين » الذين احترفوا جرائم السطو والسلب والنهب والهروب بغنائمهم للاختباء فى الجبال .

* وفى إحدى رسائل العمارنة التى وردت من بيت المقدس ، يقول كاتبها لملك مصر: « . . إن جميع أراضى سيدى الفرعون سائرة نحو الضياع . . وأخذ الفلسطينيون يهاجرون من بلادهم وقراهم رعباً من فظائع « الخابيرو » المتوحشين الذين أتلفوا أمتعتهم ومحاصيلهم وحطموا مدنهم وقراهم . . وضرب الجوع أطنابه فى ربوع فلسطين . . » .

* هذه الحالة المؤسية التى أدت إلى تفكك أوصال الامبراطورية المصرية فى آسيا كانت نتيجة مباشرة لحالة الاسترخاء العـكرى التى شملت عهد اخناتون وبعضا من خلفائه ، وانتهى بذلك عصر الامبراطورية المصرية فى مرحلتها الأولى . . وقد ظلت حالة الاسترخاء العـكرى قائمة إلى أن اعتلى ضباط الجيش عرش مصر فى أواخر عصر الأسرة الثامنة عشرة وطوال عصر الأسرة التاسعة عشرة ، واستعادوا أمجاد الامبراطورية المصرية فى مرحلتها الثانية ، على ما سوف نرى .

obeikan.com

الفساد الذى ساد فى البلاد

نتيجة للمنازعات التى حدثت فى مصر بين أخناتون ومن انضم إليه من دعاة «التوحيد» من جانب ، وبين كهنة آمون ودعاة عبادة الآلهة المتعددة من جانب آخر . . بالاضافة إلى تفكك أوصال الامبراطورية وضياع مناطق نفوذها فى الأقاليم السورية والمناطق الآسيوية الأخرى ، فقد أدت تلك المنازعات إلى سوء الأحوال الداخلية فى معظم الديار المصرية فى الوجهين القبلى والبحرى وفى المناطق الجنوبية فى بلاد النوبة التى لم تنفصل عن الامبراطورية وظلت فى حماية النفوذ المصرى .

* ومن المعروف تاريخيا أن بعد موت أخناتون تولى عرش مصر ملك يشك بعض المؤرخين فى عهده واسمه « سمنخ كا ـ رع » ثم اعقبه ملك صغير السن هو « توت عنخ آمون » وأعقبه ملك طاعن فى السن هو الملك « آى » . . ولم تكن لدى أى من هذين الملكين الأخيرين همة عسكرية لاعداد الجيوش لاستعادة المناطق السورية التى انفصلت عن الامبراطورية المصرية ، ولا قدرة على السيطرة على الفوضى السياسية والادارية التى انتشرت فى الديار والأقاليم المصرية .

* وبالنظر إلى قصر الفترة التى قضاها كل من هذين الملكين الأخيرين فى الحكم [استمر حكم توت عنخ آمون أقل من تسع سنوات ، ولم يستمر حكم الملك آى أكثر من ثلاث سنوات] فلم تتح لأى منهما فرصة مواجهة الفساد الذى عم فى كل أرجاء الدولة وكل مؤسساتها الحكومية والدينية والعسكرية والقضائية والاقتصادية ، حيث سادت حالة من التراخى المخزى والتغاضى المقصود فى ملاحظة الموظفين المدنيين الذين كانت فى أيديهم عمليات تسيير أمور الدولة ، خصوصاً ملاحظة كبار الموظفين من الذين تولوا وظائفهم واعتلوا مناصبهم العليا عن طريق الحسب والنسب والذين كان

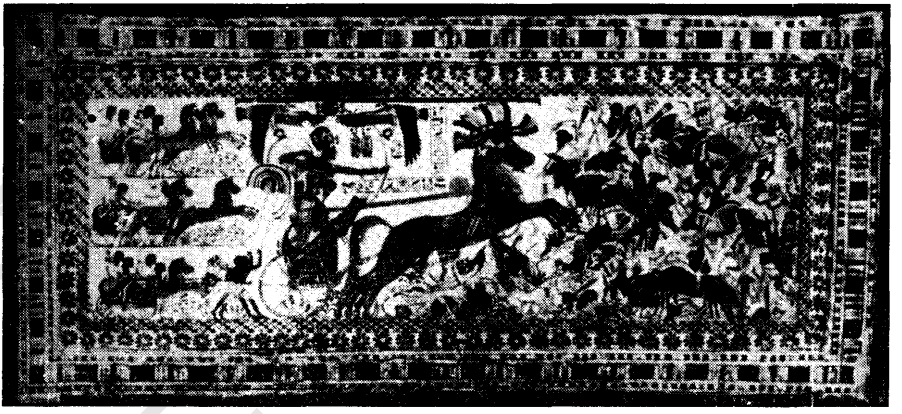

نقش رمزى يصور « توت عنخ أمون » فى معركة حربية ضد الأعداء الآسيويين

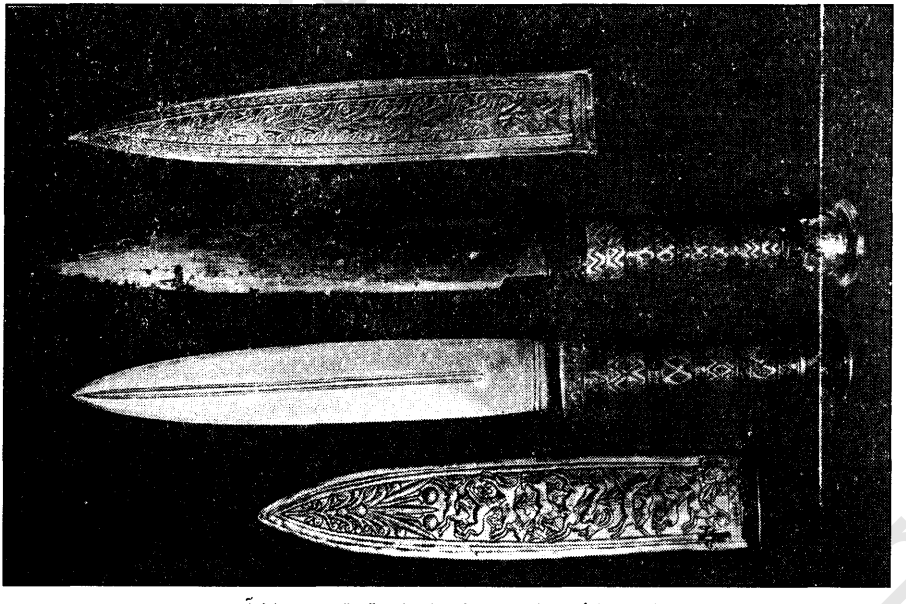

بعض من الأسلحة التى عثر عليها بمقبرة توت عنخ آمون

هدفهم الأول هو تحقيق الثراء الفاحش فى أسرع وقت ممكن وفى أقل فترة ممكنة ولو على حساب مصالح الدولة ، وذلك بممارسة سلطاتهم فى تزييف الحقائق وتزوير المستندات المحاسبية وارتكاب جرائم الاختلاس والرشاوى ، واغتصاب حقوق الناس من أفراد الشعب العاديين . . بالاضافة إلى أن ضباط ورجال الجيش الذين انصرفوا عن أداء واجباتهم العسكرية فى حماية مناطق الامبراطورية واعتلوا المناصب والوظائف المدنية فاستطاعوا بذلك تحقيق مصالحهم الشخصية وأصبحت لهم سيطرة تامة وواسعة على معظم مرافق الحكومة . . وبالتالى فقد سادت حالة من الاستهتار بالقانون وبالدين والأخلاق ، وأصبح الفساد ضاربا أطنابه وجذوره فى معظم نواحى الحياة التى سادها الظلم والخلل السياسى والاقتصادى والاجتماعى .

* وهناك الكثير من الشواهد التاريخية والأثرية التى ترجع إلى عهدى هذين الملكين نفهم منها حدوث الكثير من عمليات القرصنة التى كانت تمارس ضد السفن المبحرة فى النيل والاستيلاء على ما كانت تحمله من بضائع أو منتجات زراعية ، وعمليات قطع الطريق لنهب ما كانت تحمله الدواب ، وعمليات التطفيف فى الميزان عند تحصيل الضرائب من دافعيها ، وانتشار الرشوة بين القضاة الذين كانوا يحكمون فى القضايا المدنية والتجارية والجنائية وقضايا الأحوال الشخصية ، فاختل ميزان العدالة وضاعت حقوق المتقاضين واهتزت هيبة الدولة وقدرتها على تحقيق العدل بين الناس . . كما انتشرت أيضا عمليات السطو على قطعان الرعاة وما يختزنونه من جلود . . ومن الغريب أن هذه الجرائم كلها لم يرتكبها بلطجية أو لصوص محترفون أو مجرمون عاديون ، بل كانت ترتكب من جانب كبار الموظفين ورجال الحكومة والجيش والشرطة .

* وهكذا لم يعد هناك من سبيل لعودة مصر إلى عظمتها وأمجادها سوى إجراء اصلاحات دستورية واقتصادية واجتماعية تعيد الاستقرار وتمهد السبيل إلى إعادة النفوذ المصرى على المناطق التى انفصلت عن امبراطوريتها . . وهذا ما بدأ تحقيقه فعلاً على يد ملك عظيم اسمه « حور محب » .

الاصلاحات الدستورية .. تعيد لمصر أمجادها

بعد أن استشرى الفساد فى الديار المصرية على أيدى كبار الموظفين المدنيين والاداريين والماليين ورجال الجيش والشرطة ورجال القضاء ، لم يكن هناك بد إلا ضرورة اجراء مجموعة من الاصلاحات الدستورية والقانونية لإعادة موازين العدالة إلى نصابها السليم الذى كان يتميز به نظام الحكم فى مصر القديمة . وقد تمت هذه الاصلاحات على يد الملك « حور محب » الذى يعتبره المؤرخون وعلماء الآثار آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة وواحداً من أعظم « المشرعين » فى تاريخ العالم القديم .

* لم يكن « حور محب » منتمياً إلى العائلة المالكة ، بل كان من أبناء الشعب الذين ولدوا فى عائلة شهيرة تسكن إحدى مدن مصر الوسطى بالصعيد . . وبدأ حياته الوظيفية كاتباً فى إدارة تجنيد الجنود المستجدين ، وتدرج فى المناصب المدنية والعسكرية حتى أصبح كبير أمناء الملك وقائداً عاماً للقوات المسلحة . وفى عهد « توت عنخ آمون» أنعم عليه بمجموعة من الألقاب هى : « الأمير . . وكبير الكبراء ، وعظيم العظماء ، ورئيس الأهالى الأكبر ، ورسول الملك ، ورئيس جيشه فى الأقطار الجنوبية والشمالية ، والمشرف على إدارة القطرين البحرى والقبلى ليسيرها فى حدود النظام ، وقائد قواد سيد القطرين ، ووزير العدالة » .

* تولى « حور محب » عرش مصر بعد موت الملك « آى » الذى خلف « توت عنخ آمون » . . وما أن آلت إليه سبل التصرف المطلق فى أمور الدولة ، حتى بذل كل جهده لإقرار النظام والقضاء نهائياً على كل مظاهر الفساد الذى ساد فى البلاد . . فأصدر مجموعة من المراسيم الملكية تضم تسعة أقسام من القوانين العقابية والاجرائية لحماية الأملاك الخاصة والعامة ، وحماية طرق المواصلات النيلية والبرية ، وإعادة تنظيم

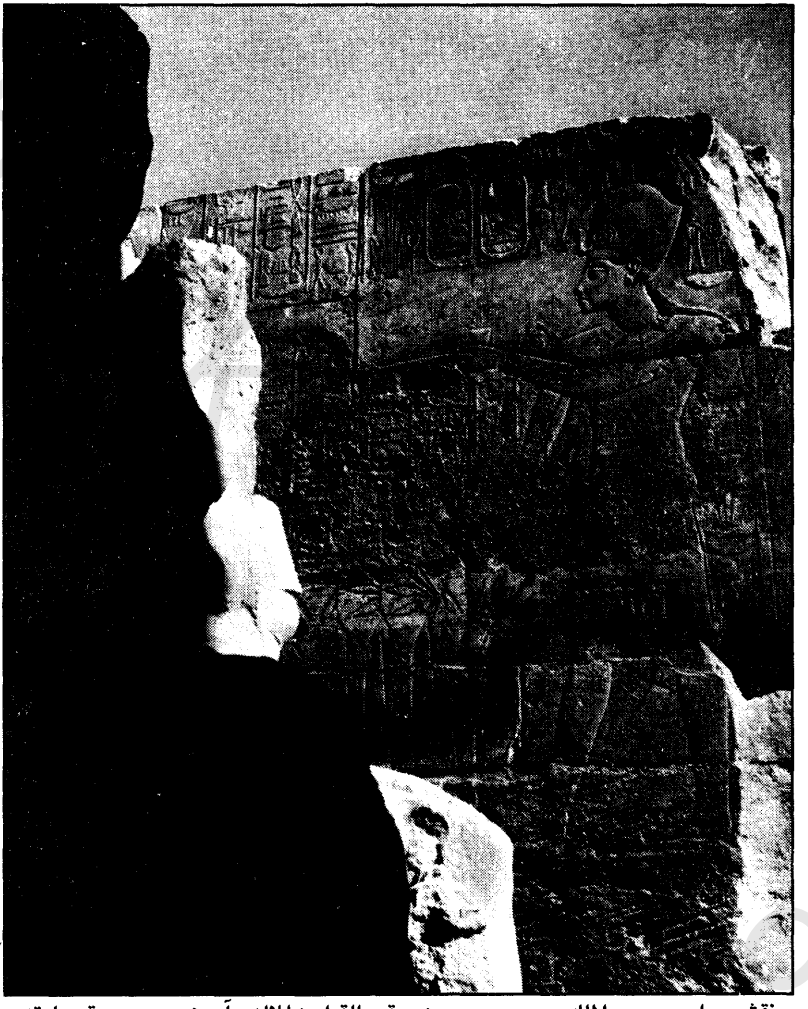

نقش جدارى يصور الملك « حورمحب » وهو يقدم القرابين للإله « آمون » بعد عودة عبادته

هيكل المناطق والفرق العسكرية للجيش والشرطة ، واعادة تنظيم المجالس الادارية المحلية بالأقاليم ، وتنظيم مسئوليات طوائف الكهنة ورجال الدين وحقوق المعابد ، وتنظيم أمور الفلسطينيين والآسيويين الذى هجروا بلادهم متدفقين إلى مصر هرباً من الفظائع الوحشية التى كان يرتكبها البدو الرعاة العبرانيين الذين أطلقت عليهم الوثائق المصرية الأثرية آسم « الخابيرو» الهمج .

* ومن القوانين العقابية التى أصدرها « محور محب » قانون بفرض عقوبة « جدع الأنف » والنفى إلى المناطق المنعزلة والمهجورة ، على الموظفين الاداريين والماليين الذين يضطهدون الفقراء أو أبناء الشعب العاديين .

* وقانون آخر ينص على أن كل شرطى عرف عنه أنه دخل إلى مساكن الرعاة أو الفلاحين لسرقة محتوياتها من جلود أو خلافه ، يحكم عليه بمائة جلدة وبجرحه فى خمسة مواضع من جسمه ، وتسترد منه المسروقات لإعادتها إلى أصحابها .

* كما سن قانونا بمنع اختلاس الأموال العامة ، ومعاقبة المتهربين من دفع الضرائب ، وتجريم المرتشين من جامعى وجباة الضرائب .

* كما أصدر قانوناً بتنظيم الأعمال القضائية ويقضى برفع مرتبات ومخصصات القضاة فى كافة المحاكم الإقليمية ، واعفائهم من دفع الضرائب ، وذلك حتى لا يكون لهم عذر فى الانحراف واتباع الوسائل غير الشريفة عند نظرهم للقضايا المعروضة عليهم، وعند ممارستهم للحكم العادل بين الناس . وينص هذا القانون على أن كل قاض يتجنى على القانون أو يخالفه يحاكم بتهمة « الخيانة العظمى » . . واختتم هذا القانون بنص يخاطب القضاة وجامعى الضرائب يقول فيه : « لا تأخذوا رشوة من أحد . . وإلا فكيف يمكنكم أن تحكموا بالعدل إذا كنتم أنتم بأنفسكم تخالفون القانون ولا تقيمون للعدالة وزنا» .

* ويختتم « حور محب » مراسيمه الملكية التى تتضمن إصلاحاته الدستورية والقانونية بنص صريح يقول فيه : « لقد أصدرت هذه القوانين لضمان رفاهية أهل مصر . . ولأقضى على مل شاهدته من ظلم صارخ فى هذه البلاد » .

إعادة أمجاد الامبراطورية المصرية

تدل ثوابت التاريخ المصرى القديم على أن المصريين عندما كانوا يشعرون بسيادة «العدالة » وعدم معاناتهم من أى مظهر من مظاهر الظلم الاجتماعى أو الاقتصادى أو السياسى ، فإن الشعب بجميع فئاته وطبقاته كان يهب لبناء أمجاده . . وهذا بالضبط ما حدث بعد أن قام « حور محب » باصلاحاته الدستورية والقانونية التى قضى بها على أوجه الفساد التى سادت فى البلاد ، وحقق بها العدالة بين الناس . . الأمر الذى أدى إلى تطلع الشعب لتحقيق النهضة الوطنية الكبرى ، ووضع نفسه فى خدمة نظام الحكم، الذى تطلع بدوره إلى « الجهاد العسكرى » وإلى إعادة أمجاد الامبراطورية المصرية إلى ما كانت عليه .

* ومات « حور محب » – آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة – دون أن ينجب وريثاً للعرش ، ولذلك فقد تولى عرش مصر بعده القائد العام للجيش المصرى « رمسيس الأول » وأسس الأسرة التاسعة عشرة . وبدأت مصر فى عصر هذه الأسرة فترة من أمجد فترات تاريخها العظيم ، استعادت فيها رقيها الحضارى وقدراتها العسكرية ، مع التزام نظام الحكم بتحقيق الرفاهية لكل أبناء شعبها .

* ولكن رمسيس الأول كان طاعنا فى السن ، ولم يستمر حكمه أكثر من عامين ، وتولى عرش مصر بعده ابنه « سيتى الأول » ﴿ نحو عام ١٣٢٠ ق م ﴾ . . وكان سيتى من الضباط العظام بالجيش المصرى ، وتميز بشجاعة الجندية والحنكة السياسية والتزامه « بدستور ماعت » الذى يقضى بتحقيق العدالة واحترام الحقوق وتأدية الواجب على أكمل وجه وتحقيق الاستقرار لكل مظاهر ونواحى الحياة الداخلية وأهمها حسن معاملة أبناء الشعب .

* ولهذا فقد وضع « سيتى الأول » خطته لاستعادة كل الأقاليم السورية الآسيوية التى كانت تابعة لنفوذ الامبراطورية المصرية منذ عهد « تحوتمس الثالث » والتى تفككت أوصالها واستقلت وهى ضعيفة لا تستطيع الدفاع عن نفسها ضد أطماع دولة الحيثيين الفتية ذات الجيش القوى المدرب ، والتى استهدفت الاستيلاء على كل هذه الأقاليم السورية توطئة لغزو مصر نفسها .

* وما أن نادى « سيتى الأول » بتجهيز الجيوش وإعدادها للجهاد حتى لبى النداء آلاف مؤلفة من شباب المصريين من كافة أقاليم الوجهين البحرى والقبلى متجهين إلى ادارات التجنيد المحلية والمركزية ، حيث تلقوا تدريباتهم العسكرية ، وقلوبهم ممتلئة بالحماس الوطنى ، وفرحين بسمو مناصب الجندية بالمخصصات المتميزة الجمة التى كانت تمنح للجنود الجدد .

* وكان سيتى يعتبر تحوتمس الثالث قدوته الحسنة ومثله الأعلى ، ولذلك فقد اتبع نفس الخطط العسكرية التى وضعها هذا القائد العظيم ، فكان أول ما صنعه هو تمهيد « طريق حورس الحربى » وهو الطريق البرى الذى يربط مصر بفلسطين ، ودعم جميع القلاع الحربية المصرية التى كانت منشأة على طول هذا الطريق . . ثم خرج بجيشه المتحمس ، فقضى على كل الاضطرابات وأعاد السيطرة المصرية على عكا وصيدا وكل الموانى الفلسطينية واللبنانية الواقعة على البحرالمتوسط ، كما خلص الأقاليم والمناطق الداخلية من مظالم وهمجية البدو الرعاة ﴿ وتطلق عليهم الوثائق المصرية اسم «الشاسو» وقد انضم إليهم البدو « الخابيرو الهمج » وهم فلول من العبرانيين ﴾ . . ثم تقدمت الجيوش المصرية إلى مناطق « نهر العاصى » .

* ومن الغريب أن بعض القبائل الليبية قد انتهزت انشغال الجيش المصرى فى آسيا فحاولت غزو مناطق غرب الدلتا ، إلا أن بعض فرق الجيش المصرى تصدت لتلك القبائل الغازية وقضت عليها قضاء مبرماً .

* كما تصدى الجيش المصرى أيضا للمناوشات العسكرية التى قام بها جيش الحيثيين فى شمال سوريا . . ولكن سيتى الأول – بحنكته العسكرية – أدرك أن الجيش

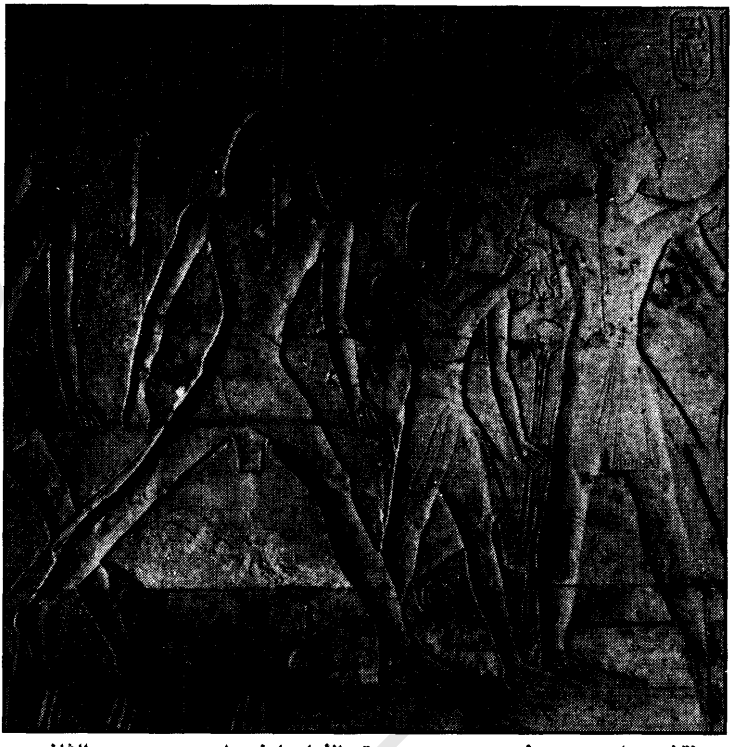

نقش جدارى بمعبد أبيدوس يصور سيتى الأول وابنه ولى عهده رمسيس الثانى

الملك سيتى الأول فى معركته ضد الليبيين

المصرى لم يصل بعد إلى القوة الحربية الفعالة التى تمكنه من الدخول مع جيش الحيثيين فى معارك حاسمة . . لذلك فقد عقد « معاهدة سلام سياسى » مع دولة الحيثيين ، وترك أمر المواجهة العسكرية بصفة مؤقتة حتى يتم تعبئة وتدريب الجيش المصرى الفتى وتزويده بالأسلحة الفعالة للدخول فى حروب طاحنة مع الحيثيين . . وهو الأمر الذى تحقق فى عهد ابنه العظيم « رمسيس الثانى » .

نقش جدارى بمعبد أبيدوس [العرابة المدفونة بمحافظة سوهاج] .. يصور الملك سيتى الأول وهو يحرق البخور أثناء تعبده للإله أمون حامى حمى الامبراطورية المصرية وجيوشها

الامبراطورية المصرية .. فى مرحلتها الثانية

بالرغم من معاهدة السلام التى عقدها « سيتى الأول » مع دولة الحيثيين ، إلا أن الحيثيين لم يحافظوا على العهد ، وتقدمت جيوشهم إلى داخل الأقاليم السورية التى كانت تابعة فيما مضى لنفوذ الامبراطورية المصرية ، واستولوا على « قادش » التى تقع فى وادى نهر العاصى ، بالرغم من بسالة المقاومة التى قام بها أهلها من السوريين الموالين لمصر ، إلا أن المدينة وقعت فى أيدى الحيثيين فى نهاية الأمر .

* وبعد أن تولى « رمسيس الثانى » عرش مصر بعد موت أبيه ، جعل همه الأول مواصلة الحروب التى بدأها أبوه لاستعادة كل الأقاليم السورية والآسيوية وإعادة كل أمجاد الامبراطورية المصرية فى مرحلتها الأولى كما كانت عليه فى عهد مؤسسها العظيم «تحوتمس الثالث » . . ولذلك فقد واصل رمسيس الثانى الخطوات التى بدأها « سيتى الأول » بتدعيم الموانى الفلسطينية والمدن اللبنانية الساحلية المطلة على البحر المتوسط .

* تنبه ملك الحيثيين إلى الاستعدادات الحربية الكبرى التى يعدها الملك المصرى الجديد ، وعرف أنه سيواجه لا محالة ملكا هو فى حقيقة الأمر من ضباط مصر العظام . . ولذلك فقد ألف ملك الحيثيين حلفاً عسكريا من حكام وولاة المستعمرات الحيثية فى بلاد النهرين وحلب وأجاريت وبعض ملوك آسيا الصغرى ، وأعد جيشا قوامه ٢٠ ألفا من الفرسان والمشاة وزوده بمجموعة كبيرة من الجنود المرتزقة استعداداً للمعارك المنتظرة التى سيقوم بها رمسيس الثانى ضد الحيثيين .

* وبالفعل قامت عدة معارك حربية طاحنة بين الجيوش المصرية بقيادة رمسيس الثانى وبين جيوش الحيثيين وحلفائهم . . وكانت معركة « قادش » هى أكبر تلك المعارك ، والتى ظل رمسيس يفخر بانتصاره فيها طول فترة حكمه الطويلة التى

نقش رمزى يصور رمسيس الثانى وهويمسك برؤوس أسراه من الآسيويين والنوبيين والليبيين

استمرت نحو ٦٧ عاماً ، والتى دونّت تفاصيلها ونقوشها فى شكل « ملحمة » مكتوبة على جدران المعابد الكبرى التى بناها والمعابد الكبرى الأخرى التى بناها ملوك مصر قبل عصره . . مثل معبد الأقصر ومعبد الكرنك ومعبد أبيدوس بالعرابة المدفونة بمحافظة سوهاج ومعبد الرمسيوم بغرب الأقصر .

* وتبدأ تلك الملحمة بذكر الانتصارات المجيدة التى أحرزها على بلاد الحيثيين ﴿التى تقع فى الهضبة المرتفعة بأواسط آسيا الصغرى ﴾ . . وبلاد النهرين ﴿ التى يقع معظمها بالقرب من شرق نهر الفرات فى مجراه العلوى ﴾ . . وبلاد إرثو ﴿ الواقعة على ساحل البحر المتوسط فى الجهة الغربية من الجنوب الغربى من بلاد الحيثيين ﴾ . . وبلاد بدس ﴿ الواقعة فى الجنوب الشرقى من عاصمة الحيثيين ﴾ . وبلاد دردنى ﴿ فى منطقة الدردنيل ﴾ . . وأرض ماسا ﴿ الواقعة على الشاطىء الجنوبى الغربى لآسيا الصغرى ﴾ . . وأرض قرقيشا ﴿ المجاورة لأرض ماسا ﴾ . . وبلاد قرقميش ﴿ التى تقع فى أعالى نهر الفرات على مسافة نحو ١٠٠ كم شمال شرق حلب ﴾ . . وأرض قدى ﴿ فى شمال سوريا ﴾ . . وأرض إركاثا ﴿ بشمال قادش ﴾ . .

* واستمرت حروب رمسيس الثانى مع الحيثيين ١٥ سنة إلى أن مات ملك الحيثيين وتولى عرشهم ملك مسالم طلب الصلح مع المصريين والاعتراف بنفوذ الامبراطورية المصرية فى الأقاليم السورية والآسيوية . وانعقد هذا الصلح فى معاهده نقش نصها على لوح فضى كما نقش أيضا على جدران معابد الرمسيوم والكرنك وألفنتين .

* ويبدأ هذا النص بافتتاحية بليغة تقول : « هذه المعاهدة الطيبة عملت لحفظ السلام والاخاء واستتباب الأمن والسكينة بين الطرفين إلى الأبد » . وتنص المعاهدة على قواعد الدفاع المشترك بين الدولتين فى حالة وقوع هجوم على أى منهما من دولة أجنبية ». ويجمع المؤرخون على أن هذه المعاهدة تعتبر أول معاهدة دبلوماسية فى تاريخ العالم . . ويجمعون أيضا على أن طريقة صياغة نصوص هذه المعاهدة لا تختلف عن صياغة المعاهدات الدولية فى العصر الحديث شكلا ومضموناً .

* وفى أعقاب عقد تلك المعاهدة حضر ملك الحيثيين إلى مصر ، حاملاً معه هدايا

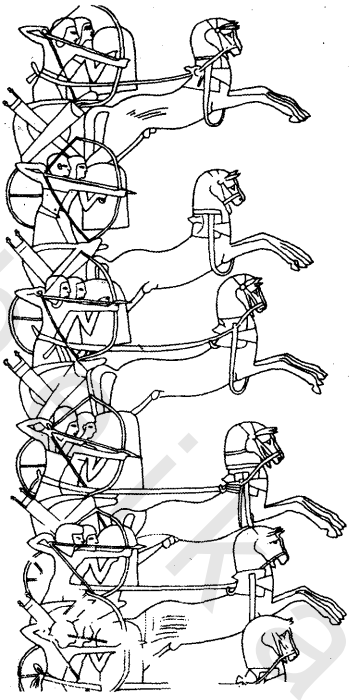

المركبات الحربية المصرية التى تتميز بخفة الحركة والسرعة ، وكان يستخدمها اثنان فقط من المحاربين

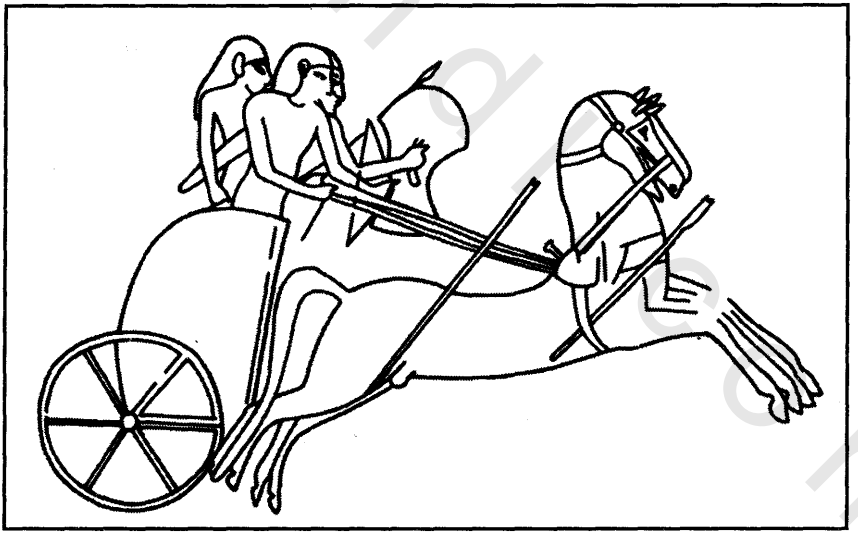

المركبات الحربية الثقيلة والبطيئة الحركة لجيش الحيثيين وكان يستخدمها ثلاثة من المحاربين

موقع على الضفة الغربية لنهر العاصى حيث دارت معركة قادش الحربية بين الجيش المصرى بقيادة رمسيس الثانى وجيش الحيثيين

قيمة ، وقدم ابنته زوجة لرمسيس . وأقيم لهذه الزيارة وهذا الزواج احتفال عظيم بالقصر الملكى .

* وهكذا استطاع رمسيس الثانى أن يعيد أمجاد الامبراطورية المصرية فى مرحلتها الثانية ، لتصبح مصر أقوى وأعظم دولة فى العالم القديم كله .

منظر لرمسيس الثانى أثناء معركة قادش وهو يسحق اعداءه من الحيثيين

obeikandl.com

أسرى من الليبيين والفلسطينيين بعد هزيمتهم

مجموعة من الجنود رماة السهام

نقش جدارى يصور جانبا من المعركة الحربية البحرية ضد شعوب البحر

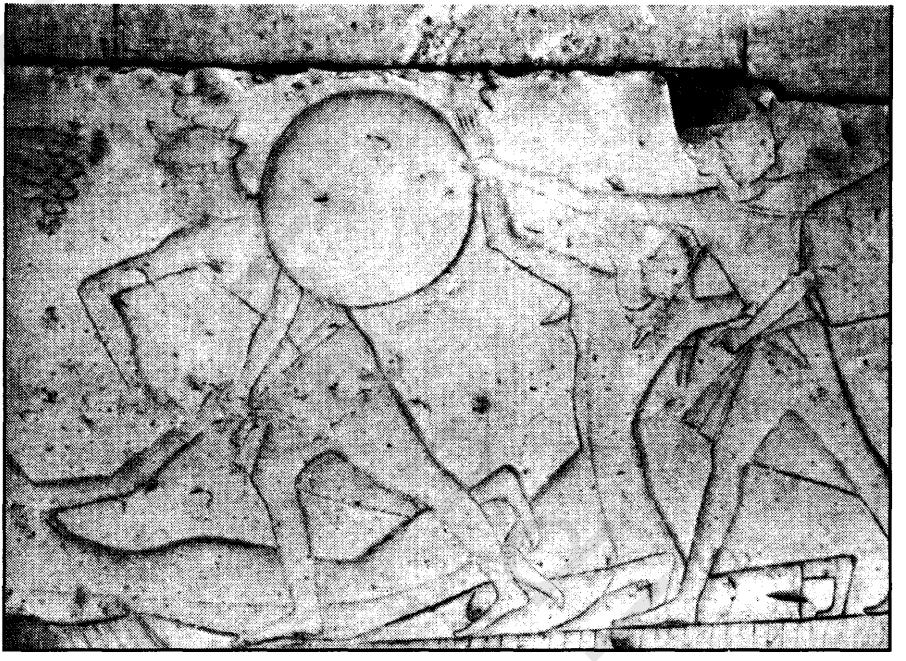

أسرى من « شعوب البحر » يسلمون أسلحتهم ودروعهم التقليدية المستديرة